

محمد الغزالي



فن الذكر والدعاء

عند خاتم الأنبياء



دار الشروق

محمد الغزالى



عند خاتم الأنبياء

دار الشروق

مقدمــة

نحن المسلمين نعرف ربنا معـرفة صحيحة ، ونعترف بحقوقه اعترافًا كـاملا ، ونضم إلى هذا وذاك شيئًا آخـر ، أن الارتفاع إلى مستوى عبوديته يتطلب قـدرًا كبيرًا من الطهر والشرف والأدب . . !!

ولنشرح هذه الكلمات بإيجاز . .

هناك من ينكر الألوهية ، وفى عالمنا جماهير كثيفة ودول مسلمة تقوم على الإلحاد . .

لكننا نحـن المسلمين نصحو وننـام ، ونغدو ونـروح ، وفى أعماقنا إحسـاس بأن قلـوبنا تـدق ، وعيوننـا تبصر ، وأيدينـا تتحرك بقـدرة اللّـه ، إحساس بـأن الليل يـدبر ، والصبـح يتنفس ، والكون كله يدور وفق قوانين محكمة بقدرة اللّه . .

البون بعيد بعيد بيننا وبين الملحدين .

وهناك مـن يعرف الألوهية معـرفة رديئة أو مغشـوشة ، ربما ظنوا أن لله ولـدا ، أو أن له شريكًا ، أو هناك من يعقب على حكمه ، أو من يراجع أمره !

وذلك كله يـرادف الجهل باللّه ، فإن المعرفـة لا تصح إلا مع إدراك يوافق الواقـع وتتألق فيه الأسماء الحسنى والصفات العلا . . ! وما أكثر الذين لا يعرفون اللّه المعرفة الواجبة ، وفى الدنيا جماهير غفيرة مـن هؤلاء الجاهلين : ﴿**وما يؤمن أكثرهـم باللّه إلا وهم مشركون**﴾ [1] وهناك من يعرف اللّه على قدر ما مـن الحق ، بيد أنه يعطى نفسه حق التصرف بغير هداه ، وحق الانطلاق فى الأرض وفق هواه . .

واللّه عز وجـل يطلب من خلقه أن ينقادوا لـه ، وأن تقوم علاقتهم بـه على مبدأ السمع

---

(١) سورة يوسف : ١٠٦ .

والطاعة : ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾ (١) .

ومعنى ذلك أن رسالة الأحياء على ظهر الأرض التقيد بأمر الله ، و ابداء الخضوع له .

والله شرع لعباده النظام وهم شرعوا لأنفسهم الفوضى ، نعم الله أمر ونهى ، لا لنفع يعود عليه أو لضر يتقيه! إنما هى مصلحة البشر.

وقد تجاهل أناس رسالتهم ، ونسوا ربهم ، وشرعوا لأنفسهم ، فماذا كسبوا؟ كسبوا أزمات الجوع والخوف!! إن الساسة أجهدوا ذكاءهم فى الشرق والغرب حتى درت الأرض السمن والعسل ، ثم جمدوا ذلك الخير كله فى أسلحة الدمار الشامل ، وبقيت الأمم تلهث وراء الضرورات المضنية .

ألا ما أشأم العصيان وأقل جدواه مهما صاحبه من ذكاء وحضارة . إن نصف الجهد فى تحصيل الأقوات لو بذل فى الأدب مع الله وابتغاء رضاه ، لكسب الناس الدنيا والآخرة معًا ، إننى أنظر إلى الكفاح الوحشى فى كسب الرزق ، وإلى كل جبين مقطب ، وعين مكسورة ، ثم أذكر الحديث القدسى ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى : «يا بن آدم تضرع لعبادتى أملأ صدرك غنى ، وأسد فقرك ، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلا ، ولم أسد فقرك» .

وأعرف أن بعض الناس قد يسارع إلى إنكار هذا الحديث ، يحسب أن المقصود منه العكوف فى المحاريب!

وما درى هؤلاء أن جوهر العبادة إسلام القلب والوجه لله ، ثم تعبر القدم فى ميدان الكدح الشريف دون جزع ولا هوان . .

إن العبادة كما هى ضراعة وتسبيح ، قدرة على امتلاك الحياة وتسخيرها لله ، ولإعلاء اسمه . بل إن الوعى الصحيح بحقوق الله يرتبط بالمعنى الثانى أكثر من ارتباطه بالمعنى الأول . المعنى الأول علم ، والمعنى الثانى تدريس لهذا العلم ونشر لحقائقه وجهاد دونه ، وهذا عمل الأنبياء ومن سار فى آثارهم . . . !

والعبودية لله درجة من الكمال لا تتاح لكل أحد ، بل يرشح لها من استجمعوا خصالا معينة .

---

(١) سورة الذاريات : ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ .

هناك عارفون بالله، ولكن المعرفة تتفاوت وضوحًا وغموضًا وسطحية وعمقًا .

وهناك مطيعون للّه، ولكن الطاعة تتفاوت نشاطًا وكسلا، وخفة وثقلا، وتكلفًا وترحيبًا .

والعبودية الكاملة إنما يحظى بها من أشرق يقينه وطار إلى ربه بجناح من الشوق والحب .

وفى طباع الناس حب لأنفسهم ربما سيطر على مسالكهم كلها، وهؤلاء محجوبون عن الله أبدا، وليس يرقى إلى درجة العبودية إلا امرؤ أحب اللّه، وأحب فيه، واكترث بشئون غيره، وهش لمصالح الخلق، وضاق بآلامهم . .

فى ميدان العلم والدراسة ناس منسوبون للّه لأنهم مرتبطون بحقائق الوحى لا يحيدون عنها يساق فيهم قوله تعالى: ﴿**ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلِّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون**﴾(١) .

وفى ميدان الجهاد الدامى ناس منسوبون إلى اللّه يحملون أعباء الكفاح بجلد، ولا ينكشفون تجاه الهزائم المرة، فيهم يقول اللّه: ﴿**وكأيِّن من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل اللّه وما ضعفوا وما استكانوا**﴾(٢) .

إن النفس التى يقول اللّه لها: ﴿**فادخلى فى عبادى* وادخلى جنّتى**﴾ نفس من طراز خاص، نفس استراحت إلى اللّه وتعاليمه، وآثرته على غيره من مغريات المال والجاه، ولم يكن ذلك خاطرا مساورا بل كان صيغة حياة، وتحديد وجهة .

وهذا معنى النداء العالى: ﴿ **يأيتها النفس المطمئنة* ارجعى إلى ربك راضية مرضية* فادخلى فى عبادى* وادخلى جنّتى** ﴾(٣) .

ذوو الحرمة بيننا يأبون أن يصادقوا مختل الفكر، أو معتل الخلق، أو معوج السلوك، فكيف يرتضى رب العالمين أن ينتسب إليه سقيم العقل، هابط السجايا، مضطرب السيرة؟

إن مقترفى الآثام دون درجة العبودية المرموقة، والجنة مأوى لمن طابت سريرته، واستقامت خليقته، وقويت باللّه صلته ! !

---

(١) سورة آل عمران: ٧٩ .
(٢) سورة آل عمران: ١٤٦ .
(٣) سورة الفجر: ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠ .

وما أزعـم العصمة لمن بلغ درجـة العبودية ، فـإن الخطأ طبيعـة الناس ولكن عبـاد اللّه الصالحين إذا أخطئوا مسحوا أخطاءهم بعبرات الندم حتى لا يبقوا لها أثرًا . .

* * *

شغفت بسير العباد الصالحين ، وحاولت أن أقبس منها شعاعًا أستضيء به .

كنت بقلبى مع موسى فى مديـن ، وهو يحس لذع الوحشة والحاجة ويقول : ﴿ **رب إنى لما أنزلت إلىَّ من خير فقير** ﴾ (١) .

وكنت مع عيسى وهو يواجه مساءلة دقيقة ويدفع عن نفسه دعوى الألوهية : ﴿**ما قلت لهم إلا ما أمـرتنى به أن اعبـدوا اللّه ربى وربكـم وكنت عليهـم شهيدا ما دمـت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد**﴾ (٢) .

وكنت مـع إبراهيم وهو بـوادى مكة المجدب يسلـم ابنه للقدر المرهوب ، ويسـأل اللّه الأنيس لأهله : ﴿**ربنا إنـى أسكنت مـن ذريتى بـواد غير ذى زرع عند بيتـك المحرم ربنـا ليقيمـوا الصـلاة فـاجعـل أفئـدة من النـاس تهوى إليهـم وارزقهـم مـن الثمـرات لعلهـم يشكرون**﴾(٣) .

غير أنى انبهرت وتاهت منى نفسى ، وأنا بين يدى النبى الخاتم محمد بن عبد اللّه ، وهو يدعو ويدعو .

لقد شعرت بأنى أمام فن فى الدعاء ذاهب فى الطول والعرض لم يؤثر مثله عن المصطفين الأخيار ، على امتداد الأدهار . .

ولسـت فى مقـام مفاضلـة بين أحـد مـن النبيين ، إنها حقيقـة علمية رأيـت إثبـاتها فى صفحات قلائل ، مشفوعة بالدلائل التى تزدحم حولها . .

وقـد نقول : أعلى جبـل فى الأرض جبـل كـذا فى الهند! ومـا نقصـد النيـل من الجبـال الأخرى ، إنه ذكر حقيقة .

قـد نقول : إن الشمـس أكبر مـن القمـر سبعين ألف ألـف مـرة ، ليكـن ، ذاك تقريـر حقيقة .

---

(١) سورة القصص : ٢٤ .

(٢) سورة المائدة : ١١٧ .

(٣) سورة إبراهيم : ٣٧ .

وفى هذا الكتاب سياحة محدودة فى جانب شريف من جوانب السيرة، جانب الذكر والدعاء .

ما فيه من توفيق هو محض الفضل الأعلى، وما قد أخطئ فيه هو رشح نفسى الأمارة بالسوء . .

ورجائى أن يقبل ربى هذه الكلمات فى ميزان الحسنات، كما أرجوه- تبارك اسمه- أن يقبل صلواتى على النبى العربى المحمد، وأن يسعدنا جميعًا بشفاعته .

كَيف عَرَّفَنَا محمَّدٌ باللّه

أنا أحد الألوف المؤلفة التى تؤمن بـالله العظيم، وتسبح بحمده، وتقر بجلاله ومجده، وتنتعش بنعمته ورفده.

ولقد عرفت هذا الإله الكبير عن طريق النبـى العربى المحمد، قرأت كتابه، ثم درست سيرته، فتجاوبت فطرتى مع رسالتـه، واستراح فكرى وقلبى إلى دعوته، وأصبحت واحدًا من جماهير ضخمة رضيت بالله ربا وبالإسلام دينًا وبمحمد- عليه الصلاة والسلام- نبيا ورسولاً..

كان فى الناس من لا يعرف الله أصلا، فأنار محمد بصيرته، وقاده من ضميره إلى مولاه.

وكان هناك من يعرفه معرفة فاسدة، يظن له ولدًا يشفع، أو شريكًا ينفع، فجاء محمد- عليه الصلاة والسلام- يقرر عقيدة الوحدانيـة المطلقة، وينفى أن يكون لله ابن أو ابنة، أو ند أو ضد، شبيه فى العظمة أو معقب فى الحكم: ﴿**أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولى وهو يحيى الموتى وهو على كل شيء قدير* وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه أنيب* فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجًا ومن الأنعام أزواجًا يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير * له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم**﴾[1].

ومعرفة محمد بالله لا تسبقها معرفـة فى الأولين والآخرين، لأنها معرفة تنبع من شهود لا يخبو سناه، ولا يغيـم ضحاه. والمسلم المتأسى بـرسوله يحس أن لهذه المعرفـة سمات خاصة تبدو فى حديثه- عليه الصلاة والسلام- فهى واضحـة صادقة حارة نفاذة، نعم لا غموض ولا افتعال، فى حديث هذا النبى عن الله، وفى ربط الناس به.

---

(١) سورة الشورى: ٩ ـ ١٢.

وللكلام الإنسانى درجة حرارة معينة يموت دونها فلا يترك أثرًا ، ولا يبلغ هدفًا ، وعندما يذكر محمد ربه راغبًا أو راهبًا يشتد النبض فى الكلمات المناسبة ، وتحتد العاطفة فى المشاعر الحارة فلا يملك قارئ أو سامع إلا أن يخشع ويستكين للّه رب العالمين . .

كنت أتابع يومًا درسًا فى علم الأفلاك حيث تقفز الأعداد إلى شطحات تسبق الخيال ، وتقاس المسافات بأرقام تنقضى قبل إحصائها الآجال . .

وتضاءلت فى نفسى ، ثم عدت إلى مواقع الأقدام من أرضى . ونظرت إلى ما تحت الثرى ، وعلمت أنى لا أدرى ، ولا أرى .

ترى ما هناك فى أعماء هذه الكرة حتى النقطة المكشوفة من سطحها فى الجانب الآخر؟ أشياء كثيرة نجهلها كل الجهل ، قلت : لكن اللّه وصف نفسه فقال : ﴿**الرحمن على العرش استوى* له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى * وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى * اللّه لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى**﴾[1] إن اللمعة المضيئة عند سدرة المنتهى كالحبة المستخفية فى ظلمات الأرض ، سواء فى علمه- تبارك اسمه- وهو علم مسطور فى سجل بين دقيق . . !!

وملأت أقطار نفسى عاطفة إعجاب بهذا الخالق الأعلى ، بيد أن الكلمات المعبرة تقاصرت ثم احتسبت ، وشاء ربى أن يلهمنى ترديد كلمات تنفس عما بى ، فإذا الكلمات المعبرة فى حديث رواه على بن أبى طالب يصف صلاة النبى الكريم جاء فيه « . . وإذا ركع يقول فى ركوعه : اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت ، خشع لك سمعى وبصرى ومخى وعظمى وعصبى[2] وإذا رفع رأسه من الركوع يقول : سمع اللّه لمن حمده ، ربنا ولك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شىء بعد[3] وإذا سجد يقول فى سجوده : اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت ، سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق فيه سمعه وبصره تبارك اللّه أحسن الخالقين »[4] .

فى هذه المناجاة ترى الألوهية الكاملة والعبودية الكاملة . .

---

(١) سورة طه : ٥ ـ ٨ .

(٢ ، ٣ ، ٤) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى .

بين يدى بديع السموات والأرض يجثو عابد ملهم، فيهمس فى ركوعه وسجوده بكلمات تصور ما ينبغى أن ينطق به كل فم تحية لذى الأسماء الحسنى!!

إن المسلم الأول- وهذا ترتيب محمد بين النبيين والصديقين والشهداء والصالحين- له فن فى الذكر والشكر والإنابة والدعاء لم يحفظ مثله لبشر. وسنلقى نظرة على ما أثر عنه عليه الصلاة والسلام- لنجلو هذه الحقيقة . .

رجعت البصر فى كتب مقدسة لأديان أخرى، فوجدتها كلها دون ما حوى القرآن الكريم من إعظام لله، وتفصيل لأمجاده ومحامده، لقد ذكر القرآن أسماء اللّه الحسنى مئات المرات فى تضاعيف قصصه وتشريعه ووصفه لمشاهد الكون، ومشاهد البعث، ورفض أن يكون الثناء على اللّه نظريًا لا يتحرك به فؤاد ولا يرقى به سلوك. ثم ترجم النبى العابد محمد عليه الصلاة والسلام هذا المنهج فى نواحى حياته كلها فصار إنسانًا ربانيًا ترنو بصيرته إلى اللّه ويباشر كل شىء فى الدنيا باسمه، كأنه منه على مرأى ومسمع. إن الغنى باللّه لا تدنيه مشاعر الرغبة والرهبة، والقوى باللّه لا تقلقه أعداد القلة والكثرة، والمراقب للّه تستوى عنده الخلوة والجلوة، وطالب الآخرة لا تستخفه مآرب الحياة الدنيا.

وقد كان محمد- عليه الصلاة والسلام- عامر القلب بربه، عميق الحس بعظمته، وكان ذلك أساس علاقته بالعباد ورب العباد.

واسمع إليه فى هذا الدعاء الجامع: «اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحينى ما علمت الحياة خيرًا لى، وتوفنى إذا علمت الوفاة خيرًا لى.

اللهم إنى أسألك خشيتك فى الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق فى الرضا والغضب، وأسألك القصد فى الفقر والغنى وأسألك نعيما لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع. . وأسألك الرضا بعد القضاء. وأسألك برد العيش بعد الموت. وأسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك، فى غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة».

«اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين. . »

ومن مجون الناس أن يقول فريق منهم: كان محمد مدعيًا للنبوة. . وَيْحَكُم!!! فأين الصدق إذن؟

إن فم بشر من أزل الدنيا إلى أبدها لم يناج اللّه بأشرف من هذا الكلم، ولم يتوجه إليه بأحر من هذه الضراعة: من يكون صادقًا إن كان محمد مزورا؟

والواقع أن المكذبين لمحمد فى درك من العجز الفكرى والروحى يعيى الحلماء، إن تحديثهم عن محمد كتحديث الهوام عن الكواكب السيارة ﴿**والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمًى أولئك يُنادَون من مكان بعيد**﴾[1].

---

(١) سورة فصلت: ٤٤

الحب أَساسه والشوق مركبه

محنة البشر أنهم مكلفون بالارتقاء إلى الملأ الأعلى على حين أنهم خلقوا من حمأ مسنون .

وهم ليسوا مكلفين أن يكـونوا ملائكة ، فهيهات مـا داموا محكومين بأجهـزة هذا الجسد ومطالبه المتجددة .

هم مكلفون أن يقاوموا الإسفاف بالتسامى ، والنسيان بالذكر ، والأثرة بالأخوة .

هـم مكلفون- بعـدمـا وهبوا الحيـاة- أن يجعلـوهـا للّه ، فـلا تكـون أنفسهم شغلهـم الشاغل ، بـل يكون واهب الحياة أملهم الماثل ، ومـا فرضه هو مصدر نشـاطهم ، وأساس حراكهم وحماسهم . . !!

وفى هذا الكـلام إجمال يحتاج إلى إيضـاح ، إن الملائكة لا تـأكل ، ولا تتكلـف زرعًا ولا حصادًا ، والبشر الذين يأكلون يضاهئون الملائكة تمامًا لو أنهم زرعوا وحصدوا وأكلوا باسم اللّه .

ووقتهم المبذول فى ذلك كله يساوى وقـت الملائكة المبذول فى التسبيح والتحميد إذا هم لحظوا قدرة اللّه فى الإنبات والإنضاج ، وفضله فى الإطعام والكسوة والمأوى . .

وقد بعث اللّه رسله من بدء الخليقة ليسيروا بالأمم على هذا الدرب ، لم يبعثهم ملائكة ، لأنه لا علاقة للملائكة بهذا النوع من التكاليف .

وقد عجب الجاهليون من ذلك وقالوا : ﴿**أبعث اللّه بشرًا رسولا * قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنـزلنا عليهم من السماء ملكًا رسولا * قل كفى بـاللّه شهيدًا بينى وبينكم إنه كان بعباده خبيرًا بصيرًا**﴾ [1] .

---

(١) سورة الإسراء : ٩٤ ـ ٩٦ .

والنبى العربى الخاتم ضرب من نفسه المثل فى إمكان أن يعيش البشر على مستوى الملائكة ذكرًا لله وشكرًا. والأفق الذى رفع الناس إليه لا تلمح فيه إلا صفوف المصلين المسبحين بحمد ربهم، أو صفوف المجاهدين الذين بذلوا فى ذات الله أنفسهم وأموالهم . .

نعم إن محمدًا أنشأ جيلا من الناس يباهى الله بهم ملائكته، لأنهم قطعوا كل الجوانب الأرضية وكل إغراءات هذه الدار العاجلة، ومشوا وراء نبيهم المتفانى فى مرضاة ربه، الناشد لوجهه وحده. المرتبط بهذه الكلمات النقية: ﴿**قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين* لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين**﴾[1].

لا يعرف محمدًا صلى الله عليه وسلم من احتبس فى سجن الدنايا أو قعد عن نصرة الحق والخير.

وينابيع الحياة العاطفية والفكرية فى نفس الرسول الكريم «محمد» بن عبدالله تجىء من معرفته الساطعة بالله، وذكره الدائم له، وأخذه بنصيبه الضخم من معانى الكمال فى أسمائه الحسنى.

ذلك أن الله خلق آدم على صورته، واستخلفه فى هذه الأرض ليكون نائبًا عنه، ومكنه، بل كلفه، أن ينشط فى استغلال خيرها وامتلاك أمرها وأوصاه أن يحترم أصله الإلهى العريق. فلا يتدلى عنه إلى نزعات الطين ووساوس الشياطين.

يجب أن يكون عالمًا ماجدًا، قادرًا كريمًا، رحيمًا منعمًا، وهابًا إلى آخر ما ترمز إليه أسماء الله الحسنى من صفات الكمال، وشارات العظمة والجمال.

والعالم- من أزله إلى أبده- لا يعرف إنسانًا استغرق فى التأمل العالى ومشى على الأرض وقلبه فى السماء، كما يعرف فى سيرة محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم.

إنه خير من حقق فى نفسه. وفى الذين حوله حياة الإنسان الكامل.

الإنسان الربانى المستخلف فى ملكوت الله، لينقل إليه أطرافًا من حقيقة هذه الخلافة الكبيرة.

وفى المواريث العقلية والعاطفية التى تركها هذا النبى الكريم، ترى كل العناصر التى يستطيع بها أى إنسان أن يقوم بوظيفته الصحيحة فى الحياة . .

---

(١) سورة الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣.

انظر إلى قوة العاطفة ودفقها فى هذه المناجاة الحارة :

روى الإمام أحمد وأبو داود والنسائى عن زيد بن أرقم أن النبى صلى اللّه عليه وسلم كان يقول دبر صلاته :

« اللهم ربنا ورب كل شىء» .

«أنا شهيد أنك الرب وحدك ، لا شريك لك» .

«اللهم ربنا ورب كل شىء ، أنا شهيد أن محمدًا عبدك ورسولك»

«اللهم ربنا ورب كل شىء ، أنا شهيد أن العباد كلهم أخوة» .

«اللهم ربنا ورب كل شىء ، اجعلنى مخلصًا لك وأهلى ، فى كل ساعة من الدنيا والآخرة» .

«يا ذا الجلال والإكرام ، اسمع واستجب» .

«اللّه الأكبر الأكبر ، نور السموات والأرض» .

«الله الأكبر الأكبر ، حسبى اللّه ونعم الوكيل » .

«اللّه الأكبر الأكبر» .

إن ألفاظ اللغة حين تعجز عن ملاحقة هذا الجيشان المنساب فى كل دعوة تجعل الرسول المنيب المتعبد يلجأ إلى التكرار فى العبارة الواحدة لينفس عما استكن فى صدره من روعة ومحبة وإجلال .

إنه فى ظاهره ترداد للفظ واحد ، وهو فى باطنه تعبير عن معان متجددة من الولاء والهيام .

ويستوقفك فى هذا الدعاء أن تتوسط شهادة النبى لشخصه بالرسالة ، بين توحيد الله ، والإقرار بأن العباد كلهم أخوة .

ما معنى أن يقول محمد لربه : «أشهد أن محمدًا عبدك ورسولك»؟

ذلك ضرب من الإصرار على تحمل الأمانة وإبلاغ الرسالة للناس كافة مهما كذبوا بها ، وتنكروا لصاحبها .

* * *

أربع وعشرون ساعة من حياة عريضة

لنتأمل فى هذه الصورة، صورة يوم واحد من حياة نبى الإسلام.

لقد صحا من نومه قبل الفجر بيقين. وظلمة الليل لا تزال مخيمة على كل شىء، إنه يتحرك مع طلائع الصبح المقبل قائلا: «الحمد لله الذى رد إلى روحى. وعافانى فى جسدى. وأذن لى بذكره».

انظر كيف يستقبل الحياة بترحاب وتفاؤل: «الحمد لله الذى رد إلى روحى».

إن العمر الذى ملكناه نعمة نحمد الله عليها، وينبغى أن نحسن استغلالها. إن الحياة فرصة النجاح لمن أراد النجاح، ولذلك امتن الله بالشروق والغروب على عباده: ﴿**الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرًا إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون**﴾[1].

وعظمة الحياة فى العافية. ما أجمل أن يكون المرء سليم البدن، تنهض أجهزته وعضلاته بوظائفها كلها دون إعياء أو ملال، إن المسلم عندئذ ينطلق فى كل أفق ليؤدى واجباته باقتدار ورغبة. وذلك سر حمد الله على العافية المتاحة..

ونقف طويلا عند قول الرسول: «وأذن لى بذكره». أرأيت أدب العبودية فى شمائل العابد الرقيق؟ إن منحه يومًا جديدا إيذان له باستئناف العبادة من مطلع الفجر.

ويبدأ العبد الشكور بذكر ربه بكلمات يقطر اليقين والحب من كل حرف فيها، يقولها فى الصباح والمساء على سواء «اللهم إنى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة، اللهم أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى، اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى، اللهم احفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى، وعن شمالى، ومن فوقى، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى».

---

(١) سورة غافر: ٦١.

قال أبو بكر الصديق رضى اللّه عنه قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لى : «قل إذا أصبحت وإذا أمسيت : اللهم عالم الغيب والشهادة ، فاطر السموات والأرض ، رب كل شيء ومليكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر نفسى ، وشر الشيطان وشركه» وفى رواية : «وأن اقترف على نفسى سوءا ، أو أجره إلى مسلم» .

مع طلائع اليوم المقبل يقول الرسول هو وأصحابه : «أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ، وعلى دين نبينا محمد ، وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين» .

وإقرار الأصحاب والأتباع أنهم على دين نبيهم محمد ظاهر ، فما معنى أن يقول ذلك النبى نفسه؟ لقد تكرر فى أدعية كثيرة أن يشهد الرسول لنفسه بالنبوة ، أو بأن محمدا حق .

وأرى أن ذلك لمقاصد حسنة منها : أنه أول ملتزم بتنفيذ ما جاء به ، فكثير من أهل الدين ورؤسائه يحسبون الدين بلاغًا للآخرين وتكليفًا . . أما هم ففوق المساءلة به .

ومنها مراغمة الكفار والمنكرين الشانئين ، وجعل ذلك حقيقة لا تنال منها الشبهات والأوهام . .

ومنها استشعار نعمة اللّه على صاحب الرسالة ، وإبراز الرضا والسعادة بها شكرًا للّه الذى اصطفى .

وقد كان القلب الشريف يجيش بمشاعر التقدير والإعظام لفضل اللّه منذ يصبح ، ويترجم عن ذلك بكلمات رائقة : « اللهم ما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك ، فلك الحمد ، ولك الشكر» .

«اللهم إنى أصبحت منك فى نعمة وعافية وستر ، فأتمم نعمتك على وعافيتك ، وسترك فى الدنيا والآخرة» .

وروى أبو هريرة أن رسول اللّه قال : «ما من رجل ينتبه من نومه فيقول : الحمد للّه الذى خلق النوم واليقظة ، الحمد للّه الذى بعثنى سالمًا سويا ، أشهد أن الله يحيى الموتى وهو على كل شيء قدير . . إلا قال اللّه تعالى : صدق عبدى» . .

وجميل أن يثنى المرء على مالك الملك ، فيستمع اللّه إلى الثناء المهدى ، ويقبله بالتصديق ، ونسبة القائل إلى عبادته ، يقول عنه : صدق عبدى . .

وعن أبى مالك الأشعرى أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : « إذا أصبح أحدكم فليقل : أصبحنا وأصبح الملك للّه رب العالمين ، اللهم إنى أسألك خير هذا اليوم ، فتحه

ونصره ونوره وبركته وهـداه، وأعوذ بك من شر ما فيه، وشر ما بعـده. ثم إذا أمسى فليقل مثل ذلك». إن الناس يعيشون داخل كهف معتم من همومهم الحقيقية، أو المتخيلة.

وإنه لمحـزن أن عقولا ذكيـة لا ترى أبعـد من جدران هـذا الكهف، وأن قلـوبًا فيـاضة بالأسى لا تحس إلا ظلمته، وضيقه.

إن الرسـول العارف بربه يستنكـر هذا الانقطاع المخـزى فيقول: «ما من صبـاح يصبح العباد إلا مناد ينادى: سبحان الملك القدوس- وفى رواية- إلا صرخ صارخ: أيها الخلائق سبحوا الملك القدوس».

أكاد أقول: إن فؤاد محمـد وحده، وهو الذى أصاخ إلى صوت الصـارخ المهيب بالبشر أن يمزقوا حجب الغفلة، وأن يثوبوا إلى الملك القدوس..

وافتنـانه صلى اللّـه عليه وسلـم فى التذكير هـو أثـر استغراقـه فى الذكـر، ورؤيته لـذى الجلال.

وجمهور الفقهـاء لا يلزم الأمـة بترديد الأذكـار والأدعية التـى نقلناهـا وننقلها هنـا، إن ترديدها مستحب وحسب، وهذا صحيح.

بيد أنـى أرى طول التـأمل فى هـذه الأذكار والضراعـات لابد منـه حين يعتل القلـب، وتضعف بـاللّه عـلاقته، فإن أثـرها قـوى فى تعريف المرء بـربه، وتبصيره بمعـانى الأسماء الحسنى.

إن الإيمان الغامـض قليل الجدوى، والإيمان الفاتـر أعجز أن يهيمـن على السلوك، أو يكبح الهوى.

والواقع أن أصحـاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لم يحتلـوا فى الإيمان مكان القمة، ولم يغيروا التاريـخ الإنسانـى، ويقيموا حكما مكـان حكم، وأخـلاقا مكـان أخلاق، إلا لقربهم من حيـاة الرسول، واقتباسهم مـن سناه، وسريان الإخلاص مـن قلبه إلى قلوبهم، وحب اللّه من فؤاده إلى أفئدتهم..

هذه طباع الناس، ربما هاج أشواقهم الهامدة شوق حار على ما قيل:

وذو الشـوق القـديم وإن تسلـى مشـوق حيـن يلقى العاشقيـنا

وأرى أن الاستماع إلى النبى وهو يدعو، واستبطان عواطفه وهو يناجى يشعلان البصائر المنطفئة، ويدفعانها دفعًا إلى الإقبال على اللّه..!!

وليكن هـذا اللون مـن الأدعية نافلـة ، فهناك قـدر مفروض من الاتصـال باللّـه يتصل بالمسجد ، والصلوات المكتوبات على كل مسلم .

إنه خلال أربع وعشرين ساعة لابد من الوقوف بين يدى اللّه خمس مرات ، وقد تفترض الجماعـة أو تكون سنـة مؤكـدة ، ومكـانة المسجـد فى المجتمـع الإسلامـى رفيعة ، وسـوف يستغرب الحديث عنها أناس أضاعوا الصلاة ، واتبعوا الشهوات . .

مع التبـس الخيط الأبيض والأسود من الفجر يبدأ الخطـو إلى المسجد ، وإغراء لـذلك يقول الرسـول الكريم «بشر المشائين إلى المساجد فى ظلـم الليل بالنور التام يـوم القيامة» : ﴿**يوم ترى المؤمنين والمؤمنـات يسعى نورهم بين أيـديهم وبأيمانهم**﴾[1] . . . ﴿**يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا**﴾[2] . .

وفى المشى إلى المساجد لحضور الجماعات ، صح قول الرسول أنه : ما يرفع الإنسان قدمًا ويضع أخرى ، إلا كتبت له حسنة ، ومحيت عنه سيئة ، ورفعت له درجة .

وروى ابن عباس أن النبى صلى اللّه عليه وسلـم خرج إلى الصلاة بعد سماع الأذان وهو يقول : «اللهـم اجعـل فى قلبى نورا ، وفى لسانـى نورًا ، واجعل فى سمعى نـورا ، واجعل فى بصرى نورًا ، واجعل من خلفى نورا ومن أمامى نورًا ، اللهم أعطنى نورًا» .

وقد أعطاه الله مـا سأل ، فكان : ﴿ **داعيا إلى الله بـإذنه وسراجًا منيرًا**﴾ وليت شعرى ما تكون الإنسانية لو خلت من محمد؟ ومن سريرته النقية وبصيرته الوضاءة؟ ومن رسالته التى غسلت غسلا ما علق بعقيدة التوحيد من لوثات الأفاكين والمخرفين . .

لقد ارتبط بالمسجد ، وجعل تعلق القلوب به أملا حلوًا ، وأحيا بسيرته دعاء أبيه إبراهيم لما قال : ﴿**رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء**﴾[3] .

لقـد تحولت الصـلاة فى سيرته مـن تكليف تصحبـه المعـاناة إلى سعـادة تستريح إليهـا النفس ، وهو القائل : «وقرة عينى فى الصلاة» .

وفى رواية كان إذا دخـل المسجد يقول : «أعوذ باللّـه العظيم وبوجهه الكريـم وسلطانه القديـم من الشيطان الرجيـم» قال : فإذا قال - المسلـم - ذلك قال الشيطان : حفـظ منى سائر اليوم .

---

(١) سورة الحديد : ١٢ .

(٢) سورة التحريم : ٨ .

(٣) سورة إبراهيم : ٤٠ .

وفى رواية . كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إذا دخل المسجد حمد الله تعالى وقال : « اللهم اغفر لى وافتح لى أبواب رحمتك» . وإذا خرج قال مثل ذلك . وقال : «اللهم افتح لى أبواب فضلك» .

ما كان أشد حبه للصلاة . كان إذا سمع المؤذن يقول : قد قامت الصلاة يقول : «آقامها اللّه وأدامها» .

ونحن مأمورون أن نردد كلمات الأذان ثم ندعو للرسول . وهنا لطيفة يحسن إثباتها . إننا نقول : اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقامًا محمودًا الذى وعدته .

ربما تساءل سائل : لماذا لم تتجانس الكلمات فى التعريف . فيقال : ابعثه المقام المحمود الذى وعدته؟ والجواب أن النبى فرح بالكلمة التى ذكرها القرآن الكريم وهو يبشر العابد المتهجد بالجائزة التى تنتظره ﴿**ومن الليل فتهجد بـه نافلة لك عسى أن يبعثك ربـك مقامًا محمودًا**﴾[١] .

لقد تشبث بالكلمة المنبئة عن مكانته فى الآخرة ، وطلب من أمته أن تدعو الرحمن بسوق الجائزة و إنجاز الوعد ، ومكافأة قوام الليل الذى تورمت قدماه من طول المناجاة والتلاوة ، والركوع والسجود .

إن لمحبة اللّه فى قلب هذا الإنسان المتبتل مكانة لا يزحمها شىء أبدا .

ولقد ربى - عن طريق المحراب الرجال الذين قادوا الإنسانية بعده ثقافيا وسياسيا ، فما رأت الدنيا حضارة أشرف ولا أتقى مما صنع هؤلاء الربانيون من رجال محمد . .

رباهم بوحى قريب العهد بربه ، فإذا الصحراء الغفل تتحول إلى معهد يخرج أعرف الناس بالقيم والشرائع ، وأحق الناس بالإمامة والسياسة .

كانت القلوب - وهو يقرأ القرآن تكاد تطير من الروعة والخشوع وكان الأصحاب يرمقونه وهو يربيهم ، فما يملأ أحد عينه منه مهابة و إعزازا .

ولقد شعر الرسول الخاتم أنه أدى رسالته عندما نظر فى مرض الموت إلى المصلين فى المسجد ، فرآهم مقبلين على اللّه ، خالصين للحق ، فاستنار وجهه كأنه صفحة مذهبة .

---

(١) سورة الإسراء : ٧٩ .

ذاك كل ما يريد!! ما يبغى إلا أن يلقى الله بهذا الثمر الحى لجهاده الدءوب.

ترى هل تعود المساجد يومًا مصانع للرجال كما كانت قديماً؟ إن الأماكن متشابهة، ولكن السكان.. غير ما نهوى..

كأن مجنون ليلى كان يصف مشاعرنا عندما قال:

أما الخيام فإنها كخيامهم ... وأرى نساء الحى غير نسائها

أَرق الدعوات بعد الطعام والشراب

والمرسلون بشر لابد لهم من تغذية رتيبة، ودعك من تساؤل المشركين:

﴿**ما لهذا الرسول يأكـل الطعام ويمشى فى الأسواق**﴾؟ تساؤل غبى فالأكل لا يستغنى عنه جسد، وإلا فكيف يحيا؟

المهم أن نعرف ماذا يأكل؟ وكيف؟

إن الذين يعيشون لغـرض ضخم يطوون رغباتهم المادية طيًا فى سبيـل ما يبتغون، وتنشأ لديهم مآرب أخرى قد تذهلهم عن أشهى المتاع.

إننا فى عصر تظله حضارة مـادية بادية اللهفة على اللذات العاجلـة. وقد يقبل الشرفاء فيها أن يقوموا بتضحية ما لقاء أمر عظيم، بيد أنهم لا يرون ذلك الغاية التى يسعون لها.

أما محمد والجيل الذى استمع إليه فنسق آخر من الفكر العالى.

واسمع إلى هذا الخبر: رأى النبـى عمر بن الخطاب وعليـه ثوب بدا وكأنـه جميل، فقال له: أجديـد هذا أم غسيل؟ فقال: بـل غسيل. فقال له الـرسول داعيًا: «البس جـديدًا، وعش حميدًا، ومت شهيدًا».

القتل فى سبيـل اللّه إحـدى شارات السعـادة التى طلبـت لعمر مـع العيش الحميـد، والثوب الجديد..

هكذا اختلطت لذات الـدنيا والآخرة فى وعيهم وأملهم، أفترى أولئك الـرجال يعيشون لإقامة المآدب الدسمة؟

إننا لا نحقـر طلب الطعام، فتلك طبيعـة البشر، كما بينا، ومن حق النـاس أن ينعموا بضرورات مكفولـة ومرفهات كذلـك لطيفة. على أن ذلك لا يعنى الشره، وإلـف التنعم، والجزع من تحمل متاعب الجهاد والحصار.

وقد كـان محمد صلى اللّـه عليه وسلـم ذا قدرة مستغـربة على العيـش الغليظ والمقـادير التافهـة من الأغـذية ، ولم يـؤثر عنـه اكتراث بأطـايب الطعـام وغاليـه ، ومع ذلـك فما أمر بشظف ، ولا حث على زهد ، ولا حرم حلالا . . !

وكان حفيا بنعمة اللّه يعظمها ويشكرها ويغـالى بها ، ويقول : «إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله تعـالى فى أوله ، فإذا نسى أن يذكر اسـم الله تعالى فى أوله فليقل : باسـم اللّه أوله وآخره» .

وكان إذا فـرغ من طعـامه قـال : «الحمد للّـه الذى أطعمنـا وسقانـا وجعلنا مسلمين» ويقول : «إن اللـه تعالى ليرضـى عن العبد يـأكل الأكلـة فيحمده عليهـا ، ويشرب الشربة فيحمده عليها» .

إن هناك أناسًا يملئون أجوافهم بالطعام والشراب ، ثم يمضون لشأنهم ما يدرون أن لله عليهم حقا ، إنهم كأية دابة دست فمها فى مزودها حتى شبعت . . وحسب . . !!

هذا السلوك الحقير لا يليـق بمؤمن . وقد كـان إمام النبيين – كدأبه أبـدا يفتن فى حمد اللّه بعـد الطعام – فمما روى عنـه قولـه : «اللهم أطعمـت وسقيت ، وأغنيـت ، وأقنيت ، وهديت ، وأحييت ، فلك الحمد على ما أعطيت» .

وقوله : «الحمد للّه الذى أطعمنى هذا ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة» .

وفى روايـة كان رسـول اللّـه إذا أكل أو شرب قـال : «الحمد للّـه الـذى أطعم وسقـى ، وسوغه ، وجعل له مخرجًا» .

أو : «الحمد للّه الذى من علينا ، وهدانا ، والذى أشبعنا وأروانا ، وكل الإحسان آتانا» .

إن هذه البشـاشة فى استقبال النعمة ، وشكـر مسديها الأعلى ، لها دلالة يجب إبـرازها ، فقد كـان النبى الخاتـم إنسانـا بعيدًا عن العلـل والآفات بـل كان جلـدًا يهزم المصارعين ، وفارس معارك يهرع للقاء المغيرين .

والبسطة فى الجسد حين تسد كل ثغرة ، وتلبى كل واجب تعد خيرا عظيما .

وصاحب العافية يطـل على الدنيا من أرحب آفاقها ، ومن حقـه أن يتزود من الطعام بما يعين عليها . . ولم يحرم اللّه مأكـلا يمد الجسد بالطاقة أو يبنى مـا تهدم من الخلايا فى كدح الحياة الطويل .

ومن زعم غير ذلك فهو يفترى على دين الله، إنما كره الإسلام السرف المتلف. والتشبع المورث للبطنة. والبدانة. وسائر الأمراض.

ولا يختلف الدين والطب فى هذه الأمور، وقد حسب النبى عليه الصلاة والسلام عدد المشركين فى بدر بين ألف وتسعمائة عندما علم أنهم يذبحون يوما تسع. ويوما عشرًا من الإبل.

وعندما يطعم مائة من الرجال جملا فإن نصيب كل واحد من اللحم يكفيه ويغنيه.

على أن النبى صلى الله عليه وسلم فى أحيان كثيرة كان يكتفى بلقيمات وتمرات. وعندما لم يكن فى البيت إلا الخل، قال: «نعم الإدام الخل» وهذه هى الرجولة المرضية القوية لا تستذلها أزمة عارضة. ولا تفقد تماسكها عندما تفقد بعض ما ألفت من زاد، أو متاع.

والبشر أجمعون لابد لهم من نفض فضلاتهم بعيدًا عن العيون، وقد شرع الإسلام تعاليم من الإنقاء والتطهر تليق بما ينبغى للبشر من وضاءة وجمال ومروءة.

وقد كان النبى إذا خرج من الخلاء يقول: «غفرانك. الحمد لله الذى أذهب عنى الأذى، وعافانى».

ومن ألطف وأجمل ما روى عنه فى ذلك: «الحمد لله الذى أذاقنى لذته وأبقى فى قوته، وأذهب عنى أذاه».

والضمير فى الجمل الثلاث يعود على الطعام.

لكأن هذه الكلمات وضعها نفر من علماء الطب والأخلاق والبلاغة.. فإنها ذكرت فضل الله فيما يسر من طعام شهى، وفيما ادخره البدن من أسباب حياته ونمائه.. ثم فيما استبعده هذا البدن من نفايات تضر ولا تسر..

أرأيت أجمل من هذا الحمد، وأرق من هذا السرد؟ إن النبى الإنسان دائم الاستحضار لآلاء الله، مسارع إلى شكرها ما استطاع.

* * *

مجالس النبوة

قد يحتاج المرء إلى العزلة كى يحتفظ بقلبه مشرقًا وفكرة ثاقبًا. وعلماء النفس يقولون: إن مستوى التفكير العالى يهبط عندما يخالط الإنسان الجموع.

وهذا صحيح بالنسبة إلى عظماء البشر العاديين، أما رسل الله فإنهم يرتفعون بالجماهير، ولا تهبط بهم الجماهير.

وقد كان من الأصحاب من يشكو أن يقظته العقلية فى مجلس الرسول تخبو عندما يعود إلى بيته.

لقد كان محمد عليه الصلاة والسلام لفرط شهوده وقوة علاقته بربه يحول الأرض سماء، والبشر ملائكة، فأصحابه من حوله يذكرون الله ويوقرونه، ويتواصون بعبادته، وأداء حقوقه.. !!

وكان رسول الله يمقت مجالس الغافلين، ويشمئز من كل تجمع خلا من ذكر الله. وفى ذلك يقول: «ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله تعالى فيه. إلا قاموا عن مثل جيفة حمار. وكان لهم حسرة»!!

إن المجالس التى يسى فيها الله، وتنفض عن لغط طويل حول مطالب العيش، وشهوات الخلق هى مجالس نتنة، وماذا فيها يستحق الخلود؟ ما يستحق الخلود إلا ما اتصل بالباقى تبارك اسمه... !!

وإذا ضم الناس مجلس يخلط بين الدنيا والآخرة فينبغى أن يستبقى خيره فى مجلس ويستبعد شره بهذا الاستغفار. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من جلس فى مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، إلا كفَّر الله له ما كان فى مجلسه ذلك».

وفى حديث آخر «أنه إذا كان فى مجلس خير كان كالطابع له، وإن كان مجلس تخليط كان كفارة له».

إن الاختلاط بالناس ربما أثار التنافس على الدنيا، ربما أثار حب الظهور، والاستطالة، ربما شغل الأذهان بقضايا تافهة. ربما قطع ما أمر الله به أن يوصل، من أجل ذلك كله جاء عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: «اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا».

«اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا. واجعله الوارث منا واجعل ثأرنا على من ظلمنا. وانصرنا على من عادانا. ولا تجعل مصيبتنا فى ديننا. ولا تجعل الدنيا أكبر همنا. ولا مبلغ علمنا. ولا تسلط علينا من لا يرحمنا».

كذلك كان النبى يختم مجالسه. فما ينفض الناس عنه قافلين إلى بيوتهم إلا وهم يخوضون فى الرحمة خوضًا.

❊ ❊ ❊

ليـــل أبيـــض

وينتهى سبح النهار الطويل، وتنقضى الصلوات المكتوبات، ويخلص كل امرئ بنفسه، قافلا إلى بيته ليستجم ويستريح، فهل ذلك ما يستقبل به محمد الليل الوافد؟ لو أن الفلاسفة الإلهيين يصنعون فى نهارهم بعض ما يصنعه محمد فى ليله لكفاهم، ولحسب هم كدحا حسنا..

إن النبى العابد يبدأ بالليل مرحلة جديدة من مراحل الإقبال على الله! ومن أكثر ما رواه المحدثون عن أذكاره وأدعيته فعن حذيفة وأبى ذر أن رسول الله كان إذا أوى إلى فراشه قال: «باسمك اللهم أحيا وأموت».

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليقل: باسمك ربى وضعت جنبى، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسى فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين».

وهذا الحديث شرح للآية الكريمة: ﴿**الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى**﴾[1].

والمؤمن فى تدبره للآية والحديث معًا يشعر أن روحه فى يد الله، وأنه يستمد محياه لحظة بعد أخرى هبة من رب العالمين.

قد يضع جنبه فلا ينهض إلا يوم النشور، فإذا كان ذلك فهو يرجو الرحمة.

وإن قام ليبدأ نهارًا آخر فهو يرجو أن يحيا فى ضمان الله وحفظه.

أترى فى ذلك المنهج أثارة من اعتداد، وغرور؟؟

---

(١) سورة الزمر: ٤٢.

وعن البراء بن عازب قال : قال رسول اللّـه صلى اللّه عليه وسلم : «إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقـك الأيمن وقل : اللهم أسلمت نفسى إليك ، وفوضت أمرى إليـك ، وألجأت ظهرى إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجـأ ولا منجى منك إلا إليـك ، آمنت بكتـابك الـذى أنـزلت ، ونبيـك الـذى أرسلت . . فـإن مت مـت على الفطرة» .

عندما يغمض المرء جفنه ويتهيأ للكرى يترك إرادته جانبًا لغيبوبة تطول أو تقصر.

كثيرون يستسلمـون للمجهول ، أمـا المؤمـن فيسلم نفسـه لربـه . . يفـوض إليه أمـره ، ويلجئ إليه ظهره . . !

إنه وحـده الحافظ ، مـن غيره يؤمـل ؟ فى دفع ضر، أو جلـب خير. وقد يفكـر المرء وهو يستعد لمنامه فى مراجعـة ما أصابه طوال يومه من ربح أو خسارة ، ومـا عرض له من خطأ ، أو صواب . .

والواقع أن الدعوات التى علمنا إياها الرسـول الكريم تريح الأعصاب من هذا العناء ، وتصل بمشاعر الرغبة والرهبة إلى مستقرها فى جنب اللّه ، وتجعل المرء قبل هجوعه يؤكد أمرًا واحدًا يناجى به ربه «آمنت بكتابك الذى أنزلت ، ونبيك الذى أرسلت» ، تلك هى الفطرة التى يستريح المسلم فى مهادها الوثير.

وجـاء فى رواية أخـرى أن النبى عليـه الصلاة والسـلام كان يقـول إذا أوى إلى فراشـه : «اللهم رب السمـوات ورب الأرض ورب العرش العظيم ربنـا ورب كل شىء فـالق الحب والنوى ، منزل التوراة والإنجيل والقرآن . . أعوذ بك من شر . . أنت آخذ بناصيته .

أنت الأول فليس قبلـك شىء ، وأنت الآخر فليـس بعدك شىء ، وأنت الظـاهر فليس فوقك شىء ، وأنت الباطن فليس دونك شىء . . اقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر» .

وفى رواية أخرى عـن على رضى اللّه عنه أن رسـول اللّه صلى اللّه عليه وسلـم كان يقول عند مضجعه : «اللهـم إنى أعوذ بوجهـك الكريم ، وكلماتك التـامة من شر ما أنـت آخذ بناصيته ، اللهم أنت تكشف المغرم والمأثم . . اللهم لا يهزم جندك ، ولا يخلف وعدك ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد ، سبحانك اللهم وبحمدك» .

وفى رواية أخرى كان يقول : «باسم اللّـه وضعت جنبى ، اللهم اغفر لى ذنبى ، واخسئ شيطانى ، وفك رهانى ، واجعلنى فى الندى الأعلى» .

ونلحظ فى هذه الأدعية كلها أن النبى الإنسان لهج بتمجيد اللّه والتحدث عن عظمته .

وقد قال- وهو يتأهب للنوم- كلامًا لا يستطيعه غيره مع حدة الانتباه وتألق الذهن، صور به الألوهية فى كمالها المطلق، وغناها الذى يرنو إليه سائر الخلق . .

وهو بعد هذا الثناء الحار يستجمع ذل العباد كلهم، فيطلب حصنا من الفقر، والدين، والإثم، ووساوس الشيطان . .

ويطلب المغفرة، والفكاك من كل قيد أرضى يشده إلى هذه الدنيا . . لأنه ينشد الانضمام إلى الندى الأعلى، إلى الرفيق الأعلى، إلى من فى السماء . . ! !

إنه ما بقى فى الأرض، أى ما بقى بين الناس لا يريد أن تشينه آفات الحياة، لا يريد أن يسوءه أحد، ومن ثم فهو يكره الفاقة والرذيلة، ويود من الدنيا ما يرشحه لآخرة رفيعة القدر . .

ولا تحسبن أنه- عليه الصلاة والسلام- يأخذه النعاس العميق بعد هذه الضراعات التى ناجى بها ربه، لا . . ما هى إلا ساعة ثم يستيقظ ليلبى أمر اللّه باستئناف التسبيح والتحميد، فى جنح الليل كما كان يصنع آناء النهار.

ألم يقل اللّه له ﴿**واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا * ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا**﴾[1] .

إن قيام الليل فرض عليه وحده . . لينم من ينام، أما هو فقد قيل له : ﴿**قم الليل إلا قليلا * نصفه أو انقص منه قليلا * أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا**﴾[2] .

والمأثور من سيرته الشريفة أنه كان يقوم بالقرآن أوقاتًا متطاولة . .

وحدث وهو فى أخريات الحلقة السادسة من عمره أن قام يصلى- وكان فى البيت عبداللّه بن عباس وهو شاب فى أوائل الصبا- رأى أن يأتم بالرسول العابد . وشرع الرسول يقرأ ويقرأ والشاب القوى يكابد طول القيام، ويرقب انتهاء الصلاة . . لكن روح العابد المتبتل قهر الشيخوخة ومضى يختم سورة، ويبدأ أخرى . . قال ابن عباس : لقد هممت أن أتركه يصلى وحده، وأنصرف . .

لقد تورمت قدماه من طول الانتصاب الخاشع بين يدى رب العالمين لكن الفؤاد العامر

---

(١) سورة الإنسان : ٢٥، ٢٦ . (٢) سورة المزمل : ٢، ٣، ٤ .

بـالحب أرهـق الجسد الـزاحـف إلى الستين فهـو لا يحس وخـز الألم قدر مـا يحس سعـادة الاستغراق، وحلاوة العبادة، وكما قيل :

وإذا كانت النفـــوس كبـــارا تعـــبت فى مــــرادها الأجســـــام

وقد يستيقظ من الليـل ويرمى ببصره إلى الأفق، ويشعر بأن هذا السكـون السائد له ما بعده.

إن الناس سوف يصبحـون بين باك وضاحك، وحـى وهالك. ومهتد وضـال، وواجد وفاقد..!!

إن الأقدار تعد لهم مع الغد المنتظر أشياء كثيرة، ترى ما الموقف منها؟

إنه يقول : «سبحـان الله ماذا أنزل من الفتـن؟ وماذا فتح من الخزائن أيقظـوا صواحب الحجر- يعنى نساءه- يارب كاسية فى الدنيا عارية فى الآخرة».

إنه يستعد لليوم الجديد قبل أن يجيء بخيره وشره، يستعد له بعبادة يحشد لها أهل بيته، ينبغى أن يقمن الليل معه. وأن يتهيأن لليوم الآخر.

إنه يـوم يقلب الأوضاع المألـوفة فى عالمنا هـذا، رب كاسية فى الـدنيا عاريـة فى الآخرة، ورب صعلوك هنا يكون ملكًا هناك.

إن الآخرة هى دار الحق، ولها يجب الاستعداد.

وقد ينام بعـد ذلك ولكن القلب المفعم بـالتقوى يقظان، فإذا تقلب فى فـراشه، أو تهيأ لقيام ليله قال : «اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن. لك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومـن فيهن، ولك الحمد أنت رب السمـوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك الحق. وقولـك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق. ومحمد حق. والساعة حق، اللهم لك أسلمت وبك آمنت، وعليك توكلـت، وإليك أنبت، وبـك خاصمـت، وإليك حاكمـت، فاغفر لى مـا قدمـت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت أنت إلهى لا إله إلا أنت».

وكان الـرسول صلى الله عليـه وسلم يرغـب أمته فى استقبـال الليل بكيان نقـى نظيف فيقول : «طهروا هذه الأجساد طهركم الله تعالى فـإنه لا يبيت أحد طاهرا إلا بات فى شعاره ملك يقول : اللهم اغفر له فإنه بات طاهرًا..».

وطهارة البدن لا تغنى عن زكاة الروح، والمرء يعان على ليل طيب إذا دلف إلى فراشه، وقلبه مع ربه، وذكره على لسانه، عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال له ولفاطمة رضى اللّه عنهما: «إذا أويتما إلى فراشكما، أو إذا أخذتما مضاجعكما فكبرا ثلاثًا وثلاثين، وسبحا ثلاثًا وثلاثين. واحمدا ثلاثًا وثلاثين». وفى رواية التسبيح: «أربعا وثلاثين» قال على فما تركته منذ سمعته من رسول الله قيل له: ولا ليلة صفين؟ قال: ولا ليلة صفين.

لقد بقى على هذا الأدب مع الله ورسوله نيفًا وثلاثين سنة حتى ليلة المعركة الرهيبة بينه وبين عدوه.

وكان على كثير الهموم، بعدت عنه الراحة فى هذه الدنيا، فلم يشعر بطعمها إلا يوم ذهب إلى ربه. وقد علقت عائشة على موته المؤلم بهذا البيت:

فألقت عصاها، واستقر بها النوى كما قر عينا بالإياب المسافر

لكن الهموم لم تذهله عن ذكر الله قبل كل منام. بل لعله كان يهزمها ويفل حدها بهذا الذكر الموصول..

وفى ترغيب الأمة كلها فى طهارة البدن والروح لاستقبال الليل جاء عن أبى أمامة رضى الله عنه سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول: «من أوى إلى فراشه طاهرا، وذكر الله عز وجل حتى يدركه النعاس، لم يتقلب ساعة من الليل يسأل الله عز وجل فيها خيرًا من خير الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه».

وعن عائشة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا آوى إلى فراشه قال: «اللهم أمتعنى بسمعى وبصرى، واجعلهما الوارث منى، وانصرنى على عدوى، وأرنى منه ثأرى، اللهم إنى أعوذ بك من غلبة الدين، ومن الجوع فإنه بئس الضجيع».

فى هذا الحديث يرجو الرسول ربه أن يبقيه سليم الحواس طوال عمره، وأن يمتعه بسمعه وبصره إلى أن يموت، كما يدعوه النجاة من غلبة الديون وسطوة الجوع.

إن هذا النبى الإنسان ينشد الحياة القوية العزيزة البعيدة عن متاعب البأساء والضراء، وهذا حق كل إنسان صحيح الفطرة، ودعك من كذبة المتدينين الذين يرحبون بالآلام كأنها غاية تقصد لذاتها، أو كأن الدين حرب على السلامة والكرامة.

وفي هذه الكلمات دعوة نريد تفسيرها وتحديد معناها. ونسأل قبل ذلك: هل بين الرسول وبين أحد من الناس عداوة شخصية؟ كلا. فقد كان أسمح الناس بحقه الخاص. وما كان يهيجه إلا أن تستباح حقوق الله. فينتصب حينئذ للدفاع عنها كأنه أسد غضوب...

وهو عندما يسأل الله أن ينصره على عدوه فإنما يشرح بهذا السؤال قوله تعالى: ﴿ **واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين** ﴾ [1].

إن الكافرين يتركون في أفئدة المؤمنين جراحا دامية، خصوصا المؤمنين الضعاف الذين جتاحهم جبروت القوة فمزق شملهم، وأذل جانبهم، وضيق عليهم الدنيا الواسعة، فهي في أعينهم كسم الخياط..!!!

من حق هؤلاء المؤمنين المقهورين أن يروا ثأرهم من عدوهم، وأن يروا كبرياء الكفر ممرغة في التراب..!

وذاك سر الأمر بقتالهم إلى أن تذهب دولتهم: ﴿**قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين * ويذهب غيظ قلوبهم** ﴾ [2].

إن للفطرة الإنسانية معالم ثابتة لا يسوغ محوها، ولا جهلها.

وهناك تدين مخبول، يؤخر العقل، ويجور على الطباع السليمة، ويتجاوز منطقها، وهذا التدين يرفضه الإسلام..

ولعل من احترام الفطرة وتلبية أشواقها ما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: « ما كان رسول الله - منذ صحبته حتى فارق الدنيا - ينام حتى يتعوذ من الجبن والكسل، والسآمة، والبخل، وسوء الكبر، وسوء المنظر في الأهل والمال، وعذاب القبر، ومن الشيطان وشركه».

وينام الرسول في هذا الليل الحي بالطهر والذكر، وما هي إلا ساعة حتى يصحو لصلاة الفجر، ويستعد لاستقبال أربع وعشرين ساعة أخرى.

يستقبلها بهذا الدعاء: «أصبحنا وأصبح الملك لله، والحمد لله لا شريك له، لا إله إلا هو، وإليه النشور»..

---

(1) سورة البقرة: ٢٨٦.

(2) سورة التوبة: ١٤ ـ ١٥.

فى خضم الحياة

محمد- عليه الصلاة والسلام- يعرف الله ويعرف الناس به، يذكر اللّه ويشكره، ويحدو قوافل الذاكرين والشاكرين، فيلهب حماسهم إذا فتروا، ويقيمهم على النهج إذا انحرفوا.

بل لقد أنشأهم إنشاء من جاهلية طامسة، فعلموا من ربهم! وكيف يحيون له على ظهر الأرض وبما يعودون إليه يوم تفتح لهم أبواب السماء:

وليست العلاقة باللّه ساعة مناجاة فى الصباح أو المساء ينطلق المرء بعدها فى أرجاء الدنيا يفعل ما يريد. كلا، هذا، تدين مغشوش.

الدين الحق أن يراقب المرء ربه حيثما كان، وأن يقيد مسالكه بأوامره، ونواهيه، وأن يشعر بضعفه البشرى، فيستعين بربه فى كل ما يعتريه.

وقد كانت سيرة الرسول نسقًا واضحًا فى عمق الصلة باللّه وشمولها، فما يمكن أن يغفل عن اللّه فى فعل أو ترك..

ومن هنا وجدنا دعواته تتناول شئون الحياة المختلفة، ولهجه بذكر اللّه يخالط كل ما يضع فيه يده.

كانت العاطفة المشبوبة تجعله يتعرض للمطر أول ما ينزل، يقول: «هذا مطر حديث عهد بربه».

وكان الناس إذا رأوا أول الثمر جاءوا به إليه، فإذا أخذه الرسول قال: «اللهم بارك لنا فى ثمرنا، وبارك لنا فى مدينتنا، وبارك لنا فى صاعنا، وبارك لنا فى مدنا». ثم يعطيه أصغر الحاضرين من الولدان..

وكان إذا عصفت الريح قال : «اللهم إنى أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها. وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به».

بهذا الشعور الغامر المستوعب يلقى كل شيء، ويواجه بتعاليم السماء كما أنزلت إليه.

فلننظر فى جنبات المجتمع الإنسانى لنرى كيف يبنيه محمد باسم الله وعلى بركته.

بناء البيت المسلم

قد تكون الغريزة الجنسية باب شر كبير عندما تستبد بها النزوات العارضة والشهوات الثائرة. وعندما تتعدى حدود الله وحقوق الناس. عندئذ تعرض صاحبها للعار والدمار . . . !!

وكل الغرائز التى لا تقفها حدود الشرع والأدب لابد منتهية بأصحابها إلى بلاء غليظ، وقد قال شاعر عربى :

إذا أنت لم تتــرك طــعامًا تحبــه	ولا مجلســـًا تدعى إلـيه الولائــد
تجلــلت عــارًا لا يـــزال يـــشبـه	سباب الرجـال نثرهــم والقصائــد

ولم يخلق الله الغرائز الجنسية للسطو والختل، ولا خلقها ليتعبد بعض الناس بقتلها والفراغ منها وقد جعل الله للغريزة الجنسية متنفسًا سمحًا هو الزواج. وأسال منها نبع الود، والرحمة الذى يلطف جو البيت.

وأهاب بالصالحين من عباده أن يقدروا هذه السعادة، ويمرحوا فى بحبوحتها، ولا يمدوا أعينهم إلى ما وراءها. وأن يوجهوا همهم بعد الزواج إلى تربية الأولاد وكفالة حاضرهم ومستقبلهم. وتكوين جيل صالح مهذب منهم. قال تعالى: ﴿**والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إمامًا**﴾[1].

والمسلم الحق يهمه مسلك بنيه نحو ربهم وإخوانهم. وليست وظيفته أن يزحم المجتمع بأولاد، حبلهم على غاربهم.

وتدبر دعوة إبراهيم: ﴿**رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء**﴾[2].

---

(١) سورة الفرقان: ٧٤.

(٢) سورة إبراهيم: ٤٠

إن الظفر بأولاد يقومون بحقوق الله ربح عظيم، ومن عظمة الإيمان في قلب الخليل أن تكون أمنيته ذرية صالحة.

إن غيره يطلب لذريته الغنى أو الرياسة، أو ما شاء من متاع الحياة الدنيا.

أما ما وراء ذلك فلا اكتراث به.. لكن أنبياء الله لهم شأن أعلى، إنهم مهمومون بأمر العقيدة: ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا **نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهًا واحدًا ونحن له مسلمون**﴾[1].

ويبدأ بناء البيت المسلم باختيار الزوجة الصالحة، ويستعين بالله في ذلك.

وجاء أنه في أول لقاء بينه وبين عروسه يستحب أن يسمى الله تعالى ويأخذ بناصيتها ويقول: بارك الله لكل واحد منا في صاحبه ثم يدعو الله قائلا: «اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما جبلتها عليه. وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلتها عليه».

وما منا أحد إلا وفي طبعه هنات تتطلب الستر والغفران.

ومن يزعم أنه رزق الكمال في مسيرته جميعه. ومن زعمت أنها تمت فلا بعيبة ظاهر ولا باطن. فكلاهما موغل في الوهم.

ولو كان الزوجان صديقين فلابد لدوام الود من غض الطرف وسؤال الله الحفظ.

ومن ميزات الإسلام أنه يجعل المطالب الطبيعية للإنسان محفوفة بذكر الله، فهو يطعم من جوع، ويروى من عطش باسم الله.

وهو يمس امرأته كذلك قارنا رغبته باسم ربه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فقضى بينهما ولد لم يضره شيطان أبدا».

والمرأة تتعرض بداهة للولادة، وهكذا متع الدنيا يعقبها ما يشوبها..

الأب يتعرض للكدح على أولاده، والأم تتعرض لآلام الحمل والوضع والرضاع وكثيرا ما تتعسر الولادة، وتتحمل الأم عناء بالغا.

ومن الخير التوجه إلى الله بما يرفع الكرب، ويزيل الضر مثل: «اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لى شأنى كله لا إله إلا أنت».

---

(١) سورة البقرة: ١٣٣.

ومثل : «يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث» .

و «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين» .

وكم لرسول الله من دعوات حافلة بحب الله ، وانتظار فرجه . . . !!!

والعلاقة بين الذكورة والأنوثة تحتاج إلى فضل بيان ، فإن النصرانية ترى من حقيقة التقوى حسم هذه العلاقة وتطلب من الصالحين والصالحات أن يصموا آذانهم عن نداء الغريزة المكظومة .

وقد قام نظام الرهبانية على هذا الأساس ، ولا يزال . .

وعندما نتأمل فى هذه القضية نرى أن البعض ضعيف الغريزة فلا يبالى بالحرمان وأن البعض الآخر شديد النزوع ، فهو إما يتخذ وسائل خفية لإشباع نهمته . أو يشتبك فى حرب قاسية مع نفسه لا يخرج منها سليم الأعصاب رضى الحكم على الأمور . .

والحكم بأن المرء بلغ حقيقة التقوى فى هذه الحالات كلها مرفوض . .

أما الإسلام فقد أباح الزواج ، ويسره ، وجعله من القربات إلى الله .

وعندما يطمئن إلى الضمانات الخلقية عند الرجل يبيح له التعدد . . وإلا منعه .

والغريب أن العالم الغربى - متأثرًا بالنصرانية - أثار دخانًا كثيفًا حول تعاليم الإسلام . وأطلق عليها ألسنة الشغب من كل ناحية .

والأغرب أن هذا العالم الغربى بنى علاقاته الجنسية على فوضى رهيبة ، فالأولاد الذين يولدون على فراش المعصية تتفاحش نسبتهم حتى كادوا فى بعض الأقطار يقاربون نسبة الأولاد العاديين .

وبالنسبة إلى التعدد ، فإن تنقل الرجل بين لفيف من النساء أمر منهوم . وقد ذكرت امرأة كنيدى - رئيس أمريكا الأسبق - أنه كان لزوجها بين ٢٠٠ و٣٠٠ صديقة .

والصعاليك فى العالم الغربى لا الملوك يستطيعون السطو على مئات الأعراض .

والذى يستحق الدهشة أن يدور الرجل بين جيش من العشيقات دون حرج ، فإذا دار بين بضع زوجات داخل سياج من الأخلاق المحكمة وضع فى قفص الاتهام . . من زعماء الغرب الكبار وساسته المشهورين رجل له فى ميدان الفاحشة قدم راسخة !! ومع استفاضة حبثه ونسبة الخنا إليه فإن هذا لم يخدش شيئا من عظمته . . . !

كتب الأستاذ أنيس منصور يقول[1]: لم يكن غريبًا أن يصدر فى فرنسا كتاب عن نمر السياسة الفرنسية «جورج كلمنصو» (١٨٤١-١٩٢٩). فهذا الرجل خاض معارك سياسية مخيفة، واستطاع أن يتغلب على الجميع، وكان قادرًا على أن يتحدث إلى عشرين شخصا فى عشرين موضوعًا فى وقت واحد . .

ولم يكن أحد يتصور أن هذا الرجل كانت له ثمانمائة عشيقة، وكان له أربعون ابنا غير شرعيين!!

ترى كم الشرعيون الذين نسلهم هذا الذئب؟

يقول أنيس منصور: لكنه عندما علم أن زوجته الأمريكية خانته نهض عند منتصف الليل وفتح لها الباب لتهبط إلى الشارع بقميص النوم!

ونعجب نحن لماذا حرم الرجل على غيره ما استباحه لنفسه . .

يقول الصحافى المعلق: كلمنصو- مثل كل الذئاب البشرية- من أكثر الناس احتقارًا للمرأة، ولم يقل أحد فى المرأة أسوأ ولا أبشع مما قاله هو، سواء على فراش اللهو، أو على فراش المرض . . !!.

ومع ذلك فإن مساعد وزير الدفاع الفرنسى أصدر كتابًا عنه، وقادة العالم الغربى يعدونه من قممهم الرفيعة. ! لماذا؟ لأنه زنى ولم يتزوج . . . !!

إن الزنى شىء يسير، أما التعدد فمنقصة تهوى بصاحبها ولو كان من العباقرة! هذا هو التقليد الذى أرسته الصليبية، وباركته، وتريد إشاعته بيننا!!

لقد ارتفع نبى الإسلام بمعنى الزواج ارتفاعًا يستحق التنويه. فهو ليس سطوة رجل قوى على أنثى ضعيفة . . إنه عقد حر، بدأ وتم بإذن اللّه وفى ضمانه، وعندما خطب رسول اللّه الناس فى حجة الوداع قال: «اتقوا اللّه فى النساء فإنكم أخذتموهن بأمانات اللّه. واستحللتم فروجهن بكلمة اللّه».

ولهذا العقد طبيعة مادية وروحية، أرضية وسماوية. والبيت القائم عليه عامر بالسكينة والمودة والتراحم . .

ولهذا العقد كذلك طبيعة اجتماعية تتيح للنماء البشرى أن يمتد فيه زاكيًا مهديا . .

---

(١) الأهرام ١٣/ ٩/ ١٩٧٩ .

وقد سمى القرآن هذه الطبائع العتيدة: «حدود اللّه» لأن اللّه يريد من أركان البيت أن تكون أركانا للبر والتقوى، والتعاون المشترك على أعباء الحياة كلها.

ونحن نثبت خطبة يبدأ بها الزواج، ثم نعقب بذكر دعاء يلازمه عند بدء آثاره، واطراد مبرره مع الزمن، ليعلم الناس أن الزواج في دين الله ليس تلاقيا حيوانيا، ولا يفهمه كذلك إلا ضعاف الورع..

قال العلماء: يستحب أن يخطب بين عقد الزواج خطبة رقيقة مناسبة، وأفضل ذلك ما رواه عبد اللّه بن مسعود قال: علمنا رسول اللّه خطبة الحاجة: «الحمد للّه، نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا، من يهد اللّه فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالحق بشيرا ونذيرا بين يدي الساعة، من يطع اللّه ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فإنه لا يضر إلا نفسه ولا يضر اللّه شيئا».

﴿يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرًا ونساء واتقوا اللّه الذى تساءلون به والأرحامَ إن اللّه كان عليكم رقيبًا﴾(1).

﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا اللّه حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾(2).

﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا اللّه وقولوا قولا سديدًا * يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع اللّه ورسوله فقد فاز فوزًا عظيما﴾(3).

ثم بعد هذه الخطبة يعقد الزواج مذكرا الزوج بتقوى الله، وإحسان العشرة، وإقامة حدود الله.

والمتدبر في الآيات المختارة يرى أنها تمهد لذلك، وتوجه لتأسيس أسرة يقوى بها الإسلام، وتدعم بها الأمة، فالزواج عقد خطير الآثار.

وتمضى السنون، ويتحول الزوجان إلى والدين، ويضحى كل منهما معلق القلب بنشء وافد يعده امتداد حياته، وتنمو الأسرة فتصير أربعا وثمانيا، وعشرا.

وحين يمتد الزمن بالأبوين يكبر الصغار ويسيرون في ذات الطريق الذى سلكه من قبلهم، ترى ما مسلك هذه الأجيال الجديدة بالنسبة إلى من مضى؟

---

(1) سورة النساء: 1.
(2) سورة آل عمران: 102.
(3) سورة الأحزاب: 70، 71.

يقول عز وجل : ﴿ووصينا الإنسان بوالـديه إحسانًا حملته أمه كُرهًا ووضعتـه كُرهًا وحمله وفصاله ثلاثون شهرًا حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال ربِّ أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىَّ وعلى والدى وأن أعمـل صالحًا ترضاه وأصلح لى فى ذريتى إنـى تبت إليك وإنى من المسلمين﴾(١).

إن الجيل الحاضر يحيى الخالـق الأعلى، ويذكر آلاءه على الجيل الماضـى ويستنزل فضله على الجيل اللاحـق، تلك هى وظيفة البيت المؤمـن، وربط الناس بربهم، وحراسـة تقاليد العبادة، والشرف التى وضعتها لهم.

فلا عجب إذا كانت حملة العرش تدعو لأهل هذه البيوت المحافظة : ﴿ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلمًا فاغفـر للذين تابوا واتبعـوا سبيلك وقهم عذاب الجحيـم * ربنا وأدخلهم جنات عـدن التى وعـدتهم ومن صلح مـن آبائهـم وأزواجهم وذرياتهم إنـك أنت العـزيز الحكيم﴾(٢).

وسنرى أن البيت الأول فى الجماعة الإسلامية، أعنى بيت النبى صلى اللّه عليه وسلم، ومن فيه من أمهات المؤمنين كان الأسوة الحسنة فى طلب الآخرة وصدق الإقبال على اللّه .

كان البيت النبوى بيت ترفع على الرفـاهة والترف، وإدمان للذكر والتلاوة، وقيام الليل يملأ آناءه بالتجهد، والثناء على اللّه .

والحق أن الأسرة الإسـلاميـة أغنى عنـاصر التربيـة والتـوجيـه، والحفـاظ عليهـا ضمان للاستقامة، وسناء الخلق، وسلامة الوجهة . .

وسنرى بعد قليل كيف كان البيت النبـوى منارة اليقين والتقوى فى حياة الأمة الإسلامية كلها . . !!

---

(١) سورة الأحقاف : ١٥ .

(٢) سورة غافر : ٧، ٨ .

معركـــة الخبـــز

يخرج المسلم من بيته ليباشر العمل الذى يؤديه، إن كان موظفًا فإلى مكتبه، وإن كان عاملاً فإلى مصنعه، وإن كان تاجرا فإلى دكانه، وإن كان فلاحًا فإلى حقله.

والناس يغدون إلى أعمالهم، وشئون الرزق مستولية على أعصابهم، مستحوذة على أفكارهم، إنهم يريدون الكثير لأنفسهم وأهليهم، المقل يريد سعة، والموسع يريد مزيدًا، ومآرب الحياة لا تقف عند حد، والقوى المبذولة وراءها تستنفد الطاقة.

ترى كم تستهلك هذه الساحة من جهود البشر؟ كأن صاحب الرسالة الخاتمة كان يستحضر هذه المشاعر، وهو يناجى ربه عندما يخرج من بيته يقول: «باسم الله، توكلت على الله، اللهم إنى أعوذ بك من أن أزل أو أزل، أو أضل أو أضل، أو أظلم أو أظلم، أو أجهل أو يجهل على...».

إنه لا يريد غلبًا على أحد، إنه يريد النجاة من الزلل يقع فيه أو يوقع أحدا فيه، إنه يبغى الهدى لنفسه ولغيره، إنه يستعيذ بالله أن يجهل على أحد أو يجهل عليه طاغ مفتون، إنه يكره الظلم فى صوره كلها..!!

بذلك يدعو ربه، ويستمد منه العون، وقد طلب الرسول من كل مسلم عندما يغدو من بيته لما يهمه من شأنه أن يوثق رباطه بربه، فعن أنس بن مالك قال قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قال- يعنى إذا خرج من بيته- باسم الله، توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له: هديت، وكفيت، ووقيت...».

إن مخالطة الناس تعرض المرء لمشكلات جمة، وقد يتولد من الاحتكاك شر حارق.

واليقظة العقلية مهما كانت حادة لا تغنى عن حماية الله، وهو سبحانه يقى من اعتمد عليه، ولاذ به.

بل ينبغى للمسلم أن يتهم قواه الذاتية، وأن يرمق باستعطاف العون الأعلى، قائلا. . كما علمه نبيه: «اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلا. وأنت إذا شئت تجعل الحزن- الصعب سهلا».

وعندما تضطرب أحوال العيش، وتبرز صعوبات مقلقة، يزداد تشبثه بربه. فعن ابن عمر عن النبى صلى اللّه عليه وسلم: «ما يمنع أحدكم، إذ عسر عليه أمر معيشته، أن يقول إذا خرج من بيته:

باسم اللّه على نفسى ومالى ودينى، اللهم أرضنى بقضائك، وبارك فيما قدر لى، حتى لا أحب تعجيل ما أخرت، ولا تأخير ما عجلت». .

سبحان اللّه، أى علم بالنفس البشرية ومتاعبها كان عند هذا الرسول؟ وأى خزائن ملأى باليقين كان يمنح منها هذا وذاك ليستبقى العلاقة باللّه ثابتة هادئة.

عن البراء بن عازب قال: أتى رسول اللّه رجل يشكو إليه الوحشة. . فقال له رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: أكثر من أن تقول: «سبحان الملك القدوس، رب الملائكة والروح، جللت السموات والأرض بالعزة والجبروت». فقالها الرجل، فذهبت عنه الوحشة.

هذا رجل من أولى الحساسية الذين يجنحون إلى العزلة، ويتطيرون من الخلائق، لعله من النوع الذى يقول:

وإن امرأ يمسى ويصبح سالمًا　　　من الناس- إلا ما جنى- لسعيد

لكن الحياة لا تتطامن لهؤلاء وترضيهم، فهم منها على وجل، وما تنقضى حاجتهم إليها، وقد ذهب يشكو إلى الرسول هذا الاستيحاش المعنت. فنصحه بذلك الدعاء، الذى يدفعه دفعًا إلى الأنس باللّه.

على أن النبى عليه الصلاة والسلام يكره تحول الوحشة إلى عجز، أو أن يكون ذكر اللّه ستارًا لهزيمة نفسية لا تليق. عن عوف بن مالك. قضى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بين رجلين، فقال المقضى عليه لما أدبر: حسبى اللّه ونعم الوكيل. . فقال رسول اللّه: «إن اللّه تعالى يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس- بالعقل والعزم والمثابرة- فإذا غلبك أمر فقل: حسبى اللّه ونعم الوكيل».

إن البصر الثاقب لم تفته حالة الرجل المحكوم عليه، لقد ملكه الفشل فولّى يستر ضعفه واستسلامه بهذه الكلمة: حسبى اللّه ونعم الوكيل، إنها هنا كلمة حق أريد بها باطل.

عندما قال هذه الكلمة الذين هزموا بالأمس في أحد. ثم أصبحوا يتحاملون على جراحهم، ويحشدون آخر ما لديهم من وسع ليثأروا من مشركي مكة لم يضعفوا. نعم لما قيل لهم: ﴿إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾[1]. قالوا ليبارك الله في عزمهم وبذلهم واستئنافهم لجهاد المبطلين..

للكلمة هنا معناها المحبوب المقبول..

وما يجوز أن تقال الكلمة تسليماً بالأمر الواقع، وتقاعساً عن تغييره، وانتظاراً من السماء أن تدافع عمن لا يدافع عن نفسه.

لابد لضمان السماء من سعي، لابد للأمل من عمل.. من أجل ذلك قال عمر: لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ثم يقول: اللهم ارزقني، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة..

على أن الحياة المعاصرة لا تشكو من متوكلين لا يعملون، وإنما تشكو من عاملين لا يتوكلون. فإن الصبغة المادية سادت القارات المعمورة.

والناس يغدون من بيوتهم وهم يتلهفون على صيد ثمين ينقضون عليه.. وإذا أمكنتهم الفرص من مآرب سال لعابهم لأخرى.. إنهم يأكلون، ولا يشبعون، ويشربون، ولا يرتوون..

وفي هذه الحمى لا تعلق للقلب إلا بالمزيد من الحطام..

فإذا حدث أن استعصى رجل على هذا المنحدر، وتراجعت إلى فؤاده خصائصه العليا، واستبان وجه ربه وسط ركام من ضباب الأهواء، فذكر اسمه، ووحده، وتشبث بآياته وتوجيهاته. فأي ثواب يكون له؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة ورفع له ألف ألف درجة»..

إن هذا الأجر الجزل ليس لألفاظ تمرق من الشفاه، إنها لحال من الثقة في الوجود الأعلى، والفضل الأعلى، تجعل الرجل يركن إلى من بيده الخير، فلا يحتال، ولا يغتال..

---

(1) سورة آل عمران: ١٧٣.

وقد أكد الأئمة أن هذه الأجور الكبيرة لا توضع بإزاء الأعمال الصغيرة، ولا الهمم الصغيرة . . !!

وفي ميدان الارتزاق والكدح للنفس والولدان، قد يختلط الطيب والخبيث والنقي والمغشوش، والمسلم يعلم أنه لا يدخل الجنة لحم نبت على سحت، وأن اللّه طيب لا يقبل إلا طيبا، ومن ثم وجب على المؤمن أن يتحرى، وقد علمنا الرسول صلى اللّه عليه وسلم هذا الدعاء: «اللهم اكفني بحلالك عن حرامك، وأغنني بفضلك عمن سواك».

«اللهم إني أسألك علما نافعا، ورزقا طيبا، وعملا متقبلا».

وفي زحام الدنيا ربما تعرض المرء ما يسوءه، وربما استفزه السفهاء ليجهل عليهم، أو ليثأر لنفسه منهم، وخير له إذا خرج من بيته أن يضمر التجاوز والسماحة. روى أنس بن مالك أن رسول اللّه قال: «أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم»؟ قالوا: ومن أبو ضمضم يا رسول اللّه؟ قال: «كان إذا أصبح قال: اللهم إني قد وهبت نفسي وعرضي لك، فلا يشتم من شتمه، ولا يظلم من ظلمه، ولا يضرب من ضربه»!!

وزحام الدنيا غاص بالمثيرات النفسية والاجتماعية، والإقبال عليها ناشب بأعماق النفس، والأمر يحتاج إلى أن نشرح موقف الأنبياء منها، تمهيدا لإيضاح موقف النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام.

الأنبياء بشر أمثالنا، ومناصبهم العالية لا تسقط عنهم مشاق التكاليف ولا تريحهم من أعباء الواجبات المفروضة، بل الصحيح أنهم أشد بلاء، وأكثر عناء، وذاك معنى قول العلماء: العصمة لا تمنع المحنة، أي لا تمنع الاختبار، وضروب التمحيص.

كان يوسف بشرا يضيق بالسجن ويتشوق للحرية، يوم قال للسجين الذي يتوقع الإفراج عنه: اذكرني عند ربك . . ولم لا يذكره، وهو بريء مظلوم؟ وهذا السجين الخارج يعرف عن يوسف أنه من الصالحين المحسنين . . فليحدث عنه الملك الذي سيعمل معه . .

وشاء اللّه أن ينسى السجين الخارج، وأن يبقى يوسف بضع سنين . . حتى جاء اليوم المقدور، وأرسل الملك إلى يوسف يستقدمه، ولكن يوسف كان قد بلغ حدا من الاكتمال والتأبي جعله يتريث في الاستجابة ويقول: أولا اعرفوا موقفي من القضية التي اتهمت فيها . . !!

ثم خرج يوسف ليتولى شئون مصر . .

وكان موسى بشرًا يحس لذع الغربة فى أرض مدين . . . فلما سقى للفتاتين أوى إلى الظل وناجى ربه : ﴿**رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير**﴾[1] .

وجاءه الغوث إذ وجد المأمن المنشود، عند سيد مدين الذى قال له : ﴿**نجوت من القوم الظالمين**﴾[2] . ثم تزوج ابنته، وعاش فى صحبته، وتهيأ للرسالة الضخمة .

وكان لوط بشرًا عندما داخله الحرج الشديد، لما رأى المجرمين من قومه ينظرون بخسة، وشره إلى وفد الملائكة عنده .

لقد تمنى لو كان ذا عصبية يؤدب بها السفلة، حتى طمأنته الملائكة أن مصير القوم يقترب .

﴿**ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر * فذوقوا عذابى ونذر**﴾[3] .

إن تعليق النبى الخاتم على بعض ما سقنا من قصص ينبئ عن جانب أخلاقه .

يقول عن لوط : «رحم اللّه لوطًا، كان يأوى إلى ركن شديد» . . يعنى أن اللّـه ما كان ليتركه، وما كان له أن يأسى على عصبية مفقودة . .

والواقع أن إحساس محمد باللّه وتأييده، لا نظير له، ولقد سمى «المتوكل» لهذه الخلة البارزة .

إن هذا الاعتماد الفذ على اللّه هو الذى آمده بالقوة على نشر عقيدته، وتبليغ رسالته فى عالم كل شبر منه يتنكر له، وأول من صرخ فى وجهه يتهدده عمه أبو لهب . . ما كانت توجد ذرة من أمل فى نجاح هذه الدعوة لولا أن صاحبها استند إلى اللّه، ومضى إلى غايته، لا يثنيه شىء . .

وتعليقه على كلمة لوط الذى يوحى بالقوة والثقة غير تعليقه على كلمة يوسف الذى يوحى بالتواضع وهضم النفس إنه يقول : « لو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى » . .

أى لاستعجلت الفرج، وتركت السجن، غير منتظر سؤال النسوة وجوابهن المعروف .

إنه هنا- مع تواضعه البادى- يقرر الطبيعة الإنسانية فى التلهف على الحرية، وكره عالم السدود، والقيود . .

---

(١) سورة القصص : ٢٤ . (٢) سورة القصص : ٢٥ .

(٣) سورة القمر ٣٨، ٣٩ .

والذى نخلص منه بعد هذا التقديم أن الأنبياء تهزهم المشاعر الفطرية التى تهز جمهرة البشر، وأنهم عندما يقدمون فى مواطن الوغى لا يأخذون أمانًا من الموت، وعندما يبذلون المال لا يأخذون ضمانًا من الفقر.

إن أخلاقهم العلا تكلفهم كل مغارم العظمة التى يدفعها الآخرون. ويبقى بعد ذلك تفرد المرسلين بأن أوجهم الذى يعيشون فيه لا يسمح لهم أبدًا بالتدلى، فهم أزكى مكانًا، وأسنى منالا.

ونتساءل بعدئذ عن علاقة محمد صلى اللّه عليه وسلم بالدنيا؟ أكان يحبها أم كان يعافها؟

ونجيب: أنه كان يعرف الدنيا معرفة الخبير، ويتذوقها تذوق المعافى السليم، بيد أنه كان مشغولا عنها بما هو أعظم، وأشرف.

إن المجد الإلهى استغرقه، فجعل فى الصلاة قرة عينه، وفى الصيام مسرح روحه، وفيما عند اللّه شغلا عن كل جاه يسعى إليه طلاب الجاه..

وقد فرض هذا النمط من الحياة على زوجاته، وأفهمهن أن طالبات الدنيا لا مكان لهن عنده: ﴿**إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحًا جميلا**﴾[1].

ولكنهن شغلن بما عناه، واجتهدن أن يرتفعن إلى مستواه، من الذكر والعبادة وطول الإقبال على اللّه. عن جويرية أم المؤمنين رضى اللّه عنها أن النبى خرج من عندها بكرة، حين صلى الصبح، وهى فى مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى، وهى جالسة فيه. فقال: «مازلت اليوم على الحالة التى فارقتك عليها»؟- من اعتكاف وتعبد- قالت: نعم..

فقال النبى صلى اللّه عليه وسلم: «لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان اللّه وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته».

وعن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «لأن أقول: سبحان اللّه، والحمد للّه، ولا إله إلا اللّه، واللّه أكبر، أحب إلى مما طلعت عليه الشمس».

---

(١) سورة الأحزاب: ٢٨.

إن سعادته، وهو يردد هذه الكلمات، ويستحلى معانيهـا، أشهى لديه من امتلاك كل ما أضاءه النهار فى دنيا الناس . .

وهب أنه ملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، ما عساه يفعل بها؟ لقد قال: إنه لو كـان لديـه مثل جبل أحـد ذهبا مـا مرت عليـه ثلاث ليال، وعنـده شىء منـه . . كان سيفرقه فى حـاجات الفقراء، ولو بقى شىء لـرصده لعوارض المسغبة، والبأسـاء التى تطرأ على الناس .

ولقد كان يملك الوادى من الشاء والنعم فلا تغيب الشمس إلا وهو فى أيدى العفاة . .

إن حبه كان لشىء آخر، لله، لكتابه، لمناجاته، لمرضاته . .

واسمع إليه يشرح مشاعـره نحو القرآن العظيم: «اللهم أنا عبـدك، وابن عبدك، وابن أمتك، وفى قبضتك، نـاصيتى بيدك، ماض فى حكمـك، عدل فى قضاؤك أسألـك بكل اسم هـو لك، سميت به نفسـك، أو أنزلته فى كتـابك، أو علمته أحدا مـن خلقك، أو ستأثرت به فى مكنون الغيب عندك، أن تجعـل القرآن الكريم ربيع قلبى، وضياء بصرى، وذهاب حزنى، وجلاء همى وغمى» . .

إن الوحـى أساسه فكيف لا يكـون أنيسه الدائم؟ كـان فى سفره يقطع المفاوز، وهـو به يصلى، وفى إقامته كان وعيه نسيجًا من معانيه .

وجاء أنه طلب من الصحابى الكبير عبدالله بن مسعود أن يقرأ عليه القرآن . . !! فقال ابن مسعود: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ فقـال صلى الله عليه وسلم: «إنى أحب أن أسمعه من غيرى» . . ويقرأ عبدالله من أول سورة النساء حتى يصل إلى قوله سبحانه: ﴿**فكيف إذا جئنا من كـل أمة بشهيد وجئنا بـك على هؤلاء شهيدًا**﴾؟ والتفت إلى الرسـول صلى الله عليه وسلم، فإذا عيناه تذرفان . . قال له: «حسبك . .» .

ويواصـل الصيام، فلا يفطـر مع الغـروب، ويحاول بعض صحبه أن يقلـده فيقول لهم الرسول مانعًا: «إنكم لستم كهيئتى، إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقين» .

إن تبتله إلى الله أحـدث تغييرًا فى كيانه البشرى، وجعله يتقلل تقلـلا خطيرا من الطعام والشراب، لأنه يحيا فى ملكوت آخر . .

ومع هذا البعـد الروحانى الساحق فقـد كان يعيش بين الناس خبيرا بطباعهـم، شاعرا بقضاياهم، يبت فيها باسم الله، فما ينحرف قيد أنملة عن الصراط المستقيم . .

هل يمكننا أن يكون موقفنا نحن من الدنيا على هذا الغرار؟ لا. ما نستطيع ولا كلفنا . .

إن بعض الفقراء والزهاد والمتصوفة حاول أن يخاصم الدنيا، ويعيش على هامشها، وأن يتشبه برسل الله فى سيرتهم المترفعة، وهيهات . .

إن حمرة الخجل لا تصنعها بعض المساحيق المجلوبة. والأزهار الصناعية قد يكون بها شبه من الأزهار الطبيعية، بل لعلها أبقى على الأيام . . لكن أين عصارة الحياة، ونعومة الملمس، ونفح الرائحة الذاتية؟

ربما نام ناس على الحصير فانطبعت عيدانه فى جلودهم . . هل يمنحهم ذلك شبهًا بالرسول الذى رمق الدنيا بنظرة غائبة لأن فؤاده حاضر مع ربه. يقظان فى حضرته، مستغرق فى شهوده؟ إن الرجل لا يكون قائدًا لأنه عثر على بدلة قائد فلبسها . .

إن لجمهور الناس موقفًا من الدنيا شرحه الرسول لهم، نحب أن يعرفوه. وحسبهم شرفا أن يلتزموه . .

كان لقارون دنيا عريضة وثراء يشد إليه العيون، وكان عشاق الحياة ينظرون إليه ويقولون: يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون . .

ولم يطلب الله من قارون تطليق هذه الدنيا، لقد طلب إليه أمورًا تعد على الأصابع . .

من مولك وكان يمكن أن تحيا صعلوكًا؟

انه اللّه . . إذن انظر إلى مالك وقل: ما شاء اللّه، لا قوة إلا باللّه . . بيد أن المغرور قال: عبقريتى هى سر غنى . . ولو فرضنا جدلا أن هذا القول صحيح فمن الذى منحك الذكاء، والمضاء؟

إنه اللّه، ولكن الغافل لا يحس . .

إن اللّه عندما يعطى يطلب الاعتراف بعطائه فهل هذا تكليف صعب؟

وهو يطلب من آخذ فضله أن يرحم ولا يقسو، وأن يعتدل ولا يطغى، وأن يصلح ولا يفسد، وقد قال لقارون: ﴿**وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض**﴾[1].

---

(١) سورة القصص: ٧٧.

ولكـن المؤسف أن نـاسًا كثيريـن يمنحهم اللّـه الدنيـا فيذكـرون أنفسهم ولا يكترثـون بغيرهم . ويضاعفون متعهم على حساب الجياع ، ويعصـف بأحلامهم الغرور فينظرون إلى الناس من فوق .

وقد حذر اللّه عباده المؤمنين مـن هذا الطيش ، وقال لهم : ﴿**يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكـم ولا أولادكم عـن ذكر اللّـه ومن يفعـل ذلك فـأولئك هـم الخاسرون * وأنفقوا ممـا رزقناكم مـن قبل أن يأتى أحـدَكم الموتُ فيقول رب لولا أخـرتنى إلى أجل قريـب فأصدق وأكن من الصالحين**﴾[1] .

وفى السيرة الشريفة حث موصـول على الصدقة ، وزجر شديد عـن الشح . وقد ثبت أن الفلسفات الكافرة التى أغوت الجماهير مـا نبتت ولا نمت إلا فى بيئات الكزازة ، والقسوة ، والأثرة العمياء . .

مع مطلع كل صبـح ، ومع انطلاق الأحياء فى فجاج الأرض يحصلون ويـؤثلون ، يذكر النبى للناس هذه الحقائق . عن أبى هريرة أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : «ما من يوم يصبـح فيه العبـاد إلا وملكان ينزلان يقـول أحدهما : اللهم أعـط منفقًا خلفًـا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكًا تلفًا» .

وفى حديث قدسى : «عبدى أنفق أنفق عليك . يد اللّه ملأى لا تغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض؟ فإنه لم يغض ما فى يده . . » .

وقد بين النبى صلى اللّـه عليه وسلم أن النفقة لا تقبـل إلا إذا كانت من كسـب طيب ، وأن اللّه كلف الرسـل خاصة ، والناس عامة أن يتحروا فى معـايشهم الحلال وحده ، فقال للأولين : ﴿**يأيها الرسـل كلوا من الطيبات واعملـوا صالحًا**﴾[2] . وقال للآخرين : ﴿**يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا للّه إن كنتم إياه تعبدون**﴾[3] .

ونشأ عـن هذه التعـاليم مجتمـع يحنو أغنيـاؤه على ضعفائه . ويبرءون مـن عبادة المال ، ويرفضون مصادره المريبة . .

وكانت سيرة الرسول أمـامهم شعاعًا هاديًا فإن الرسول بـإزاء الدنيا والمال كان يجمع بين منقبتى الغنى الشاكر ، والفقير الصابر . .

---

(١) سورة المنافقون : ٩ ، ١٠ . (٢) سورة المؤمنون : ٥١ .

(٣) سورة البقرة : ١٧٢ .

نعم فقد كان ذا مال: ﴿**ووجدك عائلا فأغنى**﴾[(١)]، وكان غناه من تجارتـه الرابحة فى مال زوجته خديجة أيام شبابه. ثم كانت أنصبته من الخمس والفيء شيئا طائلا.

لكنه لم يستحوذ على شيء من هذا كله، بـل كان يضعه فى حاجات الفقراء، وربما ظل يعطى، وظل أهل بيته كذلك حتى يستنفـد العطاء كل ما لديهم، فيمسون. وليس لديهم ما يغنى من جوع..

والمعروف فى سيرتـه عليه الصـلاة والسلام أنـه– وهو فى مـرض الموت– أهمته ذهيبـة[(٢)] كانت عنده فما استراح حتى وزعت على الفقراء. وتساءل: كيف يلقى الله. وهى عنده؟

والمعروف كذلـك أن أملاكه ليست ميراثًا لأهلـه، وأقاربه، لقد وزعـت هى الأخرى فى سبيل الله..

لقد كان يـدعو: اللهم اجعل رزق آل محمد قـوتًا –كفافا– فلما آثر الـرفيق الأعلى، كان قبل أن يصل إلى السماء أشبه بسكان السماء، ترفعًا عن مطالب الأرض، وزينات الدنيا.

---

(١) سورة الضحى: ٨.

(٢) ذهيبة: تصغير ذهبة والذهب يذكر ويؤنث.

فى السفر والعودة

ما أكثر ما يسافر الناس لشئون مادية أو أدبية، وللسفر مشقاته التى بذلت جهود كبيرة لتذليلها.

ومع ذلك فإن فراق المرء لبيته وأحبابه، وتعرضه لتخلف عاداته فى يقظته ومنامه وشرابه وطعامه، وانطلاقه مع الأقدار إلى موعد مجهول، لا يدرى بدقة كيف ينتهى؟ ولا ما يتكشف عنه المستقبل..؟ كل ذلك يجعل السفر عملا ذا بال فى حياة أى إنسان..

وقد سافر النبى عليه الصلاة والسلام مرات فى شبابه الباكر، وأيام عمله مع خديجة، وبعد البعثة.

وهو يصف مشاعر المسافر ورغباته بصدق، وينتهز حاجته إلى الأنيس والمعين، فيصله بربه بأشرف الذكر، وألطف الدعاء..

يقول: «من أراد أن يسافر فليقل لمن تخلف: استودعكم الله الذى لا تضيع ودائعه..».

ويشرح ذلك فى حديث آخر. «إن الله إذا استودع شيئًا حفظه».

المهم أنك وأنت راحل عن بيتك تذكر أن هناك من لا يغيب عن البيت أبدًا إذا غبت أنت عنه، وهو الله، وأنك إذا رجوته الحفاظ على ولدك وأهلك، وجعلتهما وديعة لديه، عدت، وهما على خير حال..

والسفر غالبًا يعرى الإنسان من أقنعة تحجب طبيعته، ويجرده من أسانيد كانت له ظهيرا إبان إقامته، ومن ثم فإنه فى فترة ارتحاله يشتد حسه بما يجد، وبما يفقد.

وأدعية الرسول صلى الله عليه وسلم تتواءم مع هذه الأحوال تواؤما مثيرا. جاء رجل إلى

النبى يقول له : إنى أريد سفرا ، زودنى؟ قال : «زودك اللّه التقوى» قال : زدنى . قال : «وغفر ذنبك» . قال زدنى قال : «ويسر لك الخير حيث كنت» .

وعن ابى هريرة أن رجلا قال : يا رسول الله إنى أريد أن أسافر . فأوصنى . . قال : «عليك بتقوى اللّه والتكبير على كل شرف» — مرتفع — فلما ولى الرجل قال : «اللهم اطو له البعد ، وهون عليه السفر» .

إن السفر الآن غيره فى أيام مضت ، لقد مهدت الطرق ، وجرت عليها المركبات الآلية ، وجلس الناس فيها مستريحين تحملهم الأدوات المبدعة على ظهر الأرض إن شاءوا ، وفوق السحب إن رغبوا .

وتقاصرت الأزمنة فما كان يتم فى شهور بشق الأنفس ، أضحى يتم فى ساعات بجهود محدودة . .

ومع هذه الراحات الميسرة فإن الأخطار المبثوثة فى البر والبحر والجو لم تنعدم ، وإن تكن قلت . . !

وما بقيت نسبة ما من المخاطر فإن دخول المرء فى هذه النسبة جائز جدا ، والحديث عما يفجأ المسافرين من عطب وتلف لا ينقطع ، ومن هنا فاستغناء الإنسان عن حماية اللّه جنون .

إن حوادث الطرق فى العالم أجمع لا تزال أفدح من شتى الأوبئة والحميات السيئة . .

والمنايا رصد للفتى حيث سلك . . !!

كل شىء قاتل	حين تلقى أجلك

وأدب النبوة فى الأسفار يوجه إلى الاحتماء باللّه ، وارتقاب لطفه . كان عبداللّه بن عمر يقول للرجل إذا أراد سفرا : ادن منى أودعك كما كان رسول اللّه يودعنا ، فيقول : «استودع اللّه دينك ، وأمانتك ، وخواتم عملك» .

قال ابن عمر : وكان النبى صلى اللّه عليه وسلم إذا ودع رجلا أخذه بيده ، فلا يدعها حتى يكون الرجل هو الذى يدع يد النبى عليه الصلاة والسلام . .

إننا بإزاء عاطفة جياشة غامرة فالرسول يستبقى يد المسافر فى يده ، لا يزهد فيه ولا يتعجله ، ويرسلها عندما يشاء المسافر الانطلاق لشأنه ، ويدعو اللّه له بثلاثة أمور ، أن

يصون دينه ، وأن يعينه على النهوض بمسئولياته التى يرتبط بها ، وأن يجعل ختام أعماله حسنًا ، فقد يخطئ أو يعثر ، ولكنه ينهض ، ويصلح أمره كله ، ويتمه على خير .

ما يحتاج المسافر إلى أكثر من ذلك . . اللهم إلا الشعور المتجدد بها يسوق اللّه من نعم حينًا بعد حين ، وذاك ما أبانه حديث آخر . قال على بن ربيعة : شهدت على بن أبى طالب رضى اللّه عنه أتى بدابة ليركبها ، فلما وضع رجله فى الركاب قال : باسم اللّه . فلما استوى على ظهرها قال : الحمد للّه ، ثم قال : سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ـ مخضعين ـ وإنا إلى ربنا لمنقلبون ، ثم قال : الحمد للّه ـ ثلاثًا ـ ثم قال : اللّه أكبر ثلاثا . ثم قال : سبحانك اللهم إنى ظلمت نفسى فاغفر لى ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت .

ثم ضحك على بن أبى طالب : فقيل : يا أمير المؤمنين من أى شىء ضحكت؟ قال : إنى رأيت النبى فعل مثل ما فعلت ، ثم ضحك . فقلت : يا رسول اللّه من أى شىء ضحكت؟ قال : «إن ربك سبحانه وتعالى يعجب من عبده ، إذا قال رب اغفر لى ذنوبى ، يعلم أنه لا يغفر الذنوب غيرى» .

عندما يذنب العبد فهو يرتكب عملا فيه قبح ودمامة ، وهذا العمل بالإضافة إلى اللّه فيه معصية وجرأة . فهل يليق بالإنسان أن يسىء إلى نفسه وربه على هذا النحو؟

انه يفعل ، مهزومًا أمام شهوة غالبة ، أو منساقًا مع فكرة غبية ، فحتى متى تصرعه أهواؤه ، ويقوده غباؤه؟؟

إن اللّه عز وجل ينتظر أوبة التائب ، وهو يفرح بتوبة عبده ، ويقدر الخطوات التى ترده إلى سيده .

حسن أن يعرف العبد غلطه ، أو يحس قباحته ، وأن يتراجع خجلان إلى ولى أمره ، وولى نعمته . .

البعض يبقى مكانه تحيط به خطيئته ، كجيش انهزم ، وحصره عدوه يريد الإجهاز عليه . . ! !

وآخرون يصحون قبل فوات الأوان ، ويجيئون إلى مولاهم يقولون : ﴿**ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار**﴾[1] .

لقد ذكر الغافل ، وآب الشارد ، وعلم أن له ربا يؤاخذ ويعفو ، ويعاقب ، ويثيب .

---

(١) سورة آل عمران : ١٦ .

ما كان أنساه وأطغاه . . وها هو ذا قد شعر بعجزه وذله ، وشعر بأن اللّه وحده هو الذى يمسح عاره ويداوى جراحه . . ليكن ﴿**والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا اللّه فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا اللّه ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون**﴾[١] .

إن هؤلاء العائدين أرشد سيرة من مذنبين مصرين ، أو مذنبين يلتمسون العفو من أناس مثلهم . .

وهنا قد نسأل : لماذا يستفتح السفر بهذا الدعاء؟ الحقيقة أن السفر الطويل يحدث هزة نفسية شديدة ، وخصوصًا إذا ترك المرء بعضه ، وانطلق فى فجاج الدنيا لا يعرف متى يعود؟ إن هذه الحالة تدنيه من ربه وتقربه بما أسلف من ذنبه ، وتطلق فمه بطلب الرحمة والغفران . .

وفى رواية أخرى أن النبى صلى اللّه عليه وسلم كان إذا استوى على بعيره خارجًا إلى سفر ، يقول بعد التكبير : «اللهم إنا نسألك فى سفرنا هذا البر والتقوى ، ومن العمل ما ترضى . . اللهم هون علينا سفرنا هذا ، واطو عنا بعده ، أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل ، اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر ، وسوء المنقلب ، وكآبة المنظر فى الأهل والمال . . » .

وإذا رجع ـــ من السفر ـــ قالهن ، وزاد فيهن : «آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون» وجاء أن الرسول وأصحابه خلال السفر ـ كانوا إذا علوا الثنايا كبروا ، وإذا هبطوا سبحوا .

كأن القافلة المسافرة كلها فى صلاة ، فهى مع الهبوط فى الأودية تسبح ساجدة ، ومع الارتفاع على الربى تهتف مكبرة .

أى حياة هذه تجعل من تمجيد اللّه شغلها ، ومن ذكره ، والثناء عليه الغناء الذى يريح الأعصاب ، ويختصر الزمن . .

إن محمدًا حول وجه الأرض إلى ساحة من السماء ، مشحونة بملائكة لا ببشر . . ! !

كنت فى سفر مع ثلة من الطلاب العرب ، وكانت الطائرة التى تحملنا قد شرعت فى الهبوط بعاصمة عربية كبيرة ، وأحسست قلقًا على مستقبل أولئك الشباب بعد نزولهم ، قلت : ترى أين يسكنون؟ ومن سيعاشرون؟ ومن من شياطين الأنس يتربص الآن بمقدمهم؟

---

(١) سورة آل عمران : ١٣٥ .

وبينما أنا فى هواجسى، إذ سمعت أصوات نفر منهم يناجون الله بالدعاء المأثور فى هذه الحالات.. فقلت فى نفسى: لن يضيعوا. إن شاء الله.

أما هذا الدعاء فقد جاء أن النبى عليه الصلاة والسلام لم ير قرية يريد دخولها إلا قال حين يراها: «اللهم رب السموات السبع وما أظللن، والأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين، أسألك خير هذه القرية، وخير أهلها، وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها، وشر أهلها، وشر ما فيها...».

وفى رواية أخرى: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أشرف على أرض يريد دخولها قال: «اللهم إنى أسألك من خير هذه، وخير ما جمعت فيها، وأعوذ بك من شرها، وشر ما جمعت فيها، اللهم ارزقنا حياها، وأعذنا من وبها، وحببنا إلى أهلها، وحبب صالحى أهلها إلينا..».

لقد استوعبت هذه الدعوات آمال الغريب النازل ببلد لا يعرفه، وجعلته يتحرك، وهو أو إلى ربه، مفوض إليه أمره، مستريح إلى كفالته حيثما توجه..!!

والتوجه إلى الله بطلب الأنس والحماية لم يكن يفارق الرسول فى أى محط ينزل به ويستجم قليلا ثم يستأنف الترحال، والفقر إلى الله صفة ملازمة لكل مؤمن وهو بهذا الوصف يستغنى عن الناس، ويتحصن من متاعبهم، عن خولة بنت حكيم سمعت رسول الله يقول: «من نزل منزلا ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شىء حتى يرتحل من منزله ذلك».

وكلمات الله التامات، ما تكتسى الله به فضله على خلقه، من خزائن رحمته، فلا يحتاجون بعدها إلى غيره، تدبر قوله تعالى: ﴿**وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا**﴾[1]. وقوله: ﴿**وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته**﴾[2]. والكلمات المعنية تكوينية لا تكليفية، يأذن الله فيها بحياه، وغناه لمن دعاه، ورجاه. !!

وعن عبدالله بن عمر قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر فأقبل الليل قال: «يا أرض، ربى وربك الله، أعوذ بالله من شرك، وشر ما فيك، وشر ما خلق فيك، وشر ما يدب عليك».

«أعوذ بك من أسد وأسود ـ وحش وإنسان ـ ومن الحية والعقرب، ومن ساكن البلد،

---

(١) سورة الأعراف: ١٣٧.   (٢) سورة الأنعام ١١٥.

ومن والد، وما ولد». الوالد والولد قيل: هما إبليس وذريته: ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو﴾[1]. ويجوز الأراذل من أبناء آدم. فأذاهم محذور، والاستعاذة منهم واردة. .

والأرض الفضاء — خصوصًا الصحراء — تكثر فيها الهوام الطائرة والزاحفة. ويتقى ما يختبئ فيها، وما يبدو عليها. .

وعندما يرجع المسافر إلى وطنه وتقر عينه برؤية أحبته ينبغى أن يشكر ربه فيقول: الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات. وهى كلمة تقال فى كل ما يسر.

وينبغى أن يقول له أهل بيته: الحمد لله الذى جمع الشمل بك، أو: الحمد لله الذى سلمك. .

وجاء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قفل من غزو فلما دخل استقبلته عائشة رضى الله عنها فأخذت بيده، وقالت: الحمد لله الذى نصرك وأعزك وأكرمك. لقد كان الناس يحسون أن رسول الله أعبد الخلق لربه، وأرجاهم لرحمته، وأكثرهم لهجا بذكره، ومدحه. فلا عجب إذا نابتهم نائبة أن يجيئوا إليه ينشدون دعاءه، ويرقبون الخير معه.

عن عائشة رضى الله عنها قالت: شكا الناس إلى رسول الله صلى الله على وسلم قحوط المطر، فأمر بمنبر فوضع له فى المصلى، ووعد الناس يومًا يخرجون فيه، فخرج رسول الله حين بدا حاجب الشمس، وقعد على المنبر، فكبر وحمد الله عز وجل ثم قال: «إنكم شكوتم جدب دياركم، واستئخار المطر إبان زمانه عنكم، وقد أمركم الله سبحانه أن تدعوه، ووعدكم أن يستجيب لكم». ثم قال: «الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، لا إله إلا الله يفعل ما يريد. اللهم أنت الله لا إله إلا أنت أنت الغنى ونحن الفقراء. أنزل علينا الغيث، واجعل ما أنزلت لنا قوة وبلاغا إلى حين». ثم رفع يديه فلم يزل فى الرفع حتى بدا بياض إبطيه، ثم حول إلى الناس ظهره، وقلب، أو حول رداءه، وهو رافع يديه، ثم أقبل على الناس، ونزل فصلى ركعتين فأنشأ الله عز وجل سحابة فرعدت وبرقت، ثم أمطرت بإذن الله تعالى، فلم يأت مسجده حتى سالت السيول. فقال: «أشهد أن الله على كل شىء قدير، وأنى عبدالله ورسوله».

---

(١) سورة الكهف: ٥٠.

حدث أن سألنى شاب مغرور: أتعرف اللّه بدليل عقلى؟ فقلت له وأنا أتضاحك: أعرفه عن خبرة حسية . .

قال: ما معنى خبرة حسية؟ قلت: إن اللقيط قد يعرف بالدليل العقلى أن له أبًا، وإن كان لم يره . . لكن الابن الشرعى لا يحتاج إلى هذا الاستدلال، لأنه مغمور بحنان أبيه وإحسانه يحسهما صباحًا ومساء، إنه يعرف أباه عن خبرة حسية، كما عبرت لك . .

إننى سألت اللّه أمورًا لا يقدر عليها إلا هو، وأجابنى تبارك اسمه إلى ما طلبت. فكيف لا أعرفه بعد؟

إن الجميل يثمر فى الكلب العقور، أفلا يثمر فى إنسان عاقل؟

أترى هؤلاء الأصحاب الذين ابتلوا بالجفاف، وهددهم الجدب بهلاك الحرث والنسل؟ لقد مشوا إلى محمد كيما يدعو ربه، كيما تجمعهم وإياه ساحأ ضراعة، ورجاءز

وأمهم كما رأيت فى صلاة استسقاء ما كادت تنتهى حتى استهل المطر يهمى، ويبشر بربيع نضير.

بم تصف إيمان هؤلاء بعد ذلك؟ لقد تجاوزوا مرحلة الإيمان النظرى إلى مرحلة أزكى وأرقى، إن كل ما قاله الرسول صلى اللّه عليه وسلم، بعد نزول الغيث: «أشهد أن اللّه على كل شىء قدير، وأنى عبداللّه ورسوله». والشهادة هنا منزلة فوق اليقين المجرد . .

قال لى الشاب المسكين: لقد تعلمنا أن المادة لا تفنى، ولا تستحدث وهو كلام يزلزل الإيمان، لولا حرارة ما أسمع . .

قلت: يا بنى إن الذين كتبوا هذا الكلام ذكروا نصف المعرفة بعد ما حرفوه عن موضعه.

إن رب المادة هو الذى لا يفنى ولا يستحدث، أما أنا وأنت فقد صح لنا وجود بعد أن لم نكن . . أنا وأنت لسنا أزليين . . ترى من أوجدنا فى بطون الأمهات؟ الأرطال الخمسة من الأجهزة اللحمية التى تملأ تجويف البطن؟ أهذه هى التى دفعت الأجنة لتخرج إلى الجو صارخة بعدما حرك الهواء الخارجى رئاتها؟

إننى أحتقر الغباء وكل ما ينتج عنه من أحكام . . فدعنى من مساخر هؤلاء الماديين . .

ربما ظن الطفل أن تحرك الصورة فى المرآة يحدث من الصورة نفسها أو من سطح المرآة المصقول، وبعد قليل من رشد سوف يدرك أن هذا التحرك يجىء من الجسم الذى يثبت الصورة، لا من الصورة المتوهمة.

ونـاس كثيرون فى طفـولتهم العقليـة ينسبـون إلى المادة مـا لا تعيه ولا تستطيعـه، وقـد تساءلت: من الذى صنع زخارف البصمات على أطراف الأصابع؟ الجلد نفسه؟ إنه منفعل لا فاعل . .

ولنترك عالم الجسم ـ على ما به من إبداع ـ إلى عالم أرقى، من الذى صنع الذكاء والغباء فى عقولنا؟ أو من الذى صنع النزق والأناة فى طباعنا؟ لننظر حولنا إلى «جندى مجهول» قام بهذا العمل الخارج، أنجد أحدًا من الناس؟ أنجد عنصرًا من العناصر؟

إن الأغبيـاء يتيهون أنفسهـم عن اللّـه عمدًا، ويحاولـون تجاهـل القدرة العليـا ببلاهـة سمجة . . وليس ذلك هو العجب، بل العجب أن من يفعل ذلك يريد أن يصف نفسه، بالعلم، والتقدم، وألقاب أخرى . . ! !

ومن قديم جحد ناس كثيرون عمل اللّه فى كونه، ونسبوا العمل إلى أقرب مظهر له، كما ينسب الطفل تحرك الصورة فى المرآة . . إلى المرآة . .

قال زين بن خالد الجهنى: صلى بنا رسول اللّه صلاة الصبح بالحديبية ـ إثر مطر سقط ليلا ـ فلما انصرف أقبل على النـاس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالـوا: اللّه ورسوله أعلم . قال: قال اللّه: أصبح من عبادى مؤمن بى، وكافر.

فأما من قال: مطرنا بفضل اللّه ورحمته . فذلك مؤمن بى كافر بالكواكب .

وأما من قال: مطرنا بنو كذا وكذا فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب .

إن الذين يظنون الأشيـاء تحدث دون تقدير إلهى وهيمنة عليا ـ وهـم فى دنيانا الآن كثر ـ كفار حقا . .

أما الذين يعرفون أن اللّه خالق كل شىء، وسائق كل فضل، فهم المؤمنون حقا . .

وسواء نسبوا العمل إلى اللّه، أو نسبوه إلى خلقه مجازا فهم مؤمنون بلا ريب، فمن قال: أنضج الصيف الفاكهة، يقصد أن الحرارة سبب الإنضـاج، فهو مؤمن ولم يقل نكرًا، لأنه عارف أن اللّه هـو الذى أخرج الزرع، وتفضـل به على خلقه، إنما الإثم على مـن خلا من اللّه قلبه، وفكره ونسب الأشياء إلى أدنى سبب منها، وأبى أن يعترف بألوهيته وراء ما نلمح مـن أسباب وقـد كان النبـى صلى الله عليـه وسلم بين الحين والحين يكشـف الغطاء عـن الأسباب العادية، ويبين قيمتها ليربط الناس بربهم، ويجعل ذكره بين أعينهم .

واللّه عز وجل لطفا منه بعباده قد يحرمهم ما يحتاجون إليه ليسارعوا إلى ساحته طالبين، ويسألون ملحين، فإذا أعطاهم انعش مشاعر الشكر فى أفئدتهم، وعادوا. وقد ربا إيمانهم..

وصلاة الاستسقاء، والحاجة، والاستخارة شرعت لذلك..

وقد رأيت الناس فى مكة - إذا تأخر المطر - هرعوا إلى الصلاة. وصاحوا يطلبون النجدة من السماء، فما هى إلا أيام حتى ينزل الغيث..

ولقد رأينا على عهد رسول اللّه أن الإجابة تعقب السؤال.. ما كاد النبى صلى اللّه عليه وسلم يدعو حتى تستهل السماء، وتبدأ الأنهار تتكون..

الغريب أنه فى شرق أفريقية وغربها وقع جفاف أهلك البلاد والعباد وما فكر أحد فى صلاة استسقاء. لأن اللّه لا يُعرَفُ ولا يُقْصَدُ!!وتلك سمات الحضارة المادية. وآثارها كما نقلها الاستعمار إلى الأقطار التى نكبت به..

متاعب الدنيا

البشر محكومون بقوانين اللذة والألم، قد يضعفون مع المتاعب إلى حد الهوان . . وقد يشتدون مع المنافع إلى حد الطغيان . . والمطلوب من المؤمن الكيس ألا يزيغ، ولا يطغى، وأن يظل متماسكًا على حاليه كلتيهما . .

وهو ما بقى حيا لن يستريح من اختبار، وتلك طبيعة الفترة التى نقضيها فى هذه الدنيا .

والآلام تكشف الضعف الإنسانى، وتدفع العاقل دفعًا إلى الوقوف بباب الله يطلب العافية. ويرجو رحمة ربه. ومطلوب من المؤمن أن يلجأ إلى الله فى كل ما ينوبه. ولو كان تافها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ليسترجع أحدكم فى كل شىء حتى فى شسع نعله. فإنها من المصائب» ـ والشسع رباط الحذاء .

والمقصود من ذلك أن يعول المسلم فى شئونه كلها على معونة الله. وألا يتصور انقضاء شىء منها دون إذنه تعالى. ولو كان لا يلقى له بالا. فإن مصالح المرء صغراها. وكبراها مرهونة بالتوفيق الأعلى .

فإذا عظم الخطب اشتد إلى الله فزعه. وطالت ضراعته . فعن ثوبان أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا راعه شىء قال : «هو الله، الله ربى لا شريك له» . وكان يعلم أصحابه عند الفزع هذه الكلمات :

«أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه، وشر عباده، ومن همزات الشياطين، وأن يحضرون» .

وعن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : شكوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أرقا أصابنى فقال : «قل : اللهم غارت النجوم، وهدأت العيون. وأنت حى قيوم لا تأخذك

سنة ولا نوم . . يا حى يا قيوم أهدئ ليلى وأنم عينى» . فقلتها ، فأذهب اللّه عز وجل عنى ما كنت أجد . . !!

وظاهر أن الرسول الكريم يتأول آية الكرسى ، أعنى كلماتها الأولى . فيستوقف المرء الفقير إلى النوم . والاستغراق أمام الملك الذى يدبر ما سكن فى الليل والنهار . ولا يغفل لحظة . .

وعندما يقف الإنسان فى إطار ضعفه أمام ذى العزة والملكوت . فإنه يعود ملء اليدين بالخير . .

وقد أمرنا أن ندعو اللّه بأسمائه الحسنى ، واللّه يحب أن يمدح ، ولذلك جاء فى الحديث : «ألظوا ـ ألحوا ـ بيا ذا الجلال والإكرام» .

وقد ذكرنا أن النبى عليه الصلاة والسلام أعلم الناس باللّه ، وأتقاهم له ، وأبصرهم بمجال أسمائه الحسنى فى آفاق الكون والحياة ، وأسرعهم إلى ما تتطلبه من مشاعر الصبر والشكر ، والتحية والحمد . .

ويظهر لمؤرخى السيرة الشريفة أن التجارب التى مر بها قبل البعثة وبعدها أنضجت الكمال الإنسانى فى شخصه إلى حد لا يتكرر فى الدنيا ، على أن أحدًا من الخلق ـ مهما كان قدره ـ لا يفرض صداقته على اللّه ، بل اللّه هو الذى ـ إذا شاء ـ أحب واصطفى . .

وعندما يحب ويختار يسوق الأحداث التى ترفع القدر ، وتزيد الأجر ، ويغلب أن تكون جسيمة فادحة تنفى الراحة ، والقرار الناعم . .

ومن هنا بدأ النبى الخاتم حياته يتيمًا يحتاج إلى الكافل الحانى ، ولكن اللّه آواه ، وبدأ حائرًا لا يبصر المنهج ، ولا يدرى من حكمة الحياة شيئًا ، ولكن اللّه علم وهدى . . وبدأ فقيرا يكدح ليحيا ، ويضرب فى أرجاء الأرض ليصون وجهه وعرضه ، ولكن اللّه أغنى .

وفى صفة هذه البداية وفى تقرير ما يترتب عليها يقول اللّه تعالى : ﴿**ألم يجدك يتيمًا فآوى * ووجدك ضالا فهدى * ووجدك عائلا فأغنى * فأما اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر * وأما بنعمة ربك فحدث**﴾[1] .

والنعمة الوسطى بين هذه النعم الثلاث ، الهدى بعد الضلال ـ كما عبر السيد وهو يخاطب عبده ـ احتاجت إلى سورة لتوضحها ، وتكشف حقيقتها ، وهى سورة الانشراح ،

---

(١) سورة الضحى : ٦ـ ١١ .

فإن النبى عليه الصلاة والسلام نشأ فى بيئة أثقلتها الجاهلية بأنواع التخلف. ومع ما فيها من سوء فهى أزكى وأسلم من البيئات التى ملأها أهل الكتاب بالتزوير والغش.

وقد عاف النبى مآثر الجاهلية، كما رفض شرود النصارى واليهود، فما عساه يصنع؟ لا شىء.. لقد اعتزل بفطرته النقية بعيدًا، ضائقًا بأحواله وأحوال الآخرين، فهو ما يستطيع أن يسدى لأحد علمًا، ولا لنفسه، فمن أين له؟

والإنسان ذو الحسن المرهف تشقيه أزمات الضمير والفكر، وتجعل الحياة فى عينه أضيق من سم الخياط، وما يعزيه متاع الدنيا كلها لو أتيح له، كذلك كان محمد حتى فجأه الوحى.

وفى ذلك يقول اللّه له: ﴿**ألم نشرح لك صدرك**﴾؟ بفيض الحقائق الأدبية التى أضمتها؟: ﴿**ووضعنا عنك وزرك**﴾ انزاح الحمل الثقيل الذى كان يبهظك وأنت مستوحش حائر منقطع؟ ﴿**الذى أنقض ظهرك**﴾ لقد كنت بهذا الحمل تهرب من المجتمع، وتأسى لنفسك ولغيرك، وتألم لعجزك، وغربتك عما حولك..

ثم اجتباك اللّه.. ومن أرفع ممن يختاره رب الأرض والسماء ليهديه ويهدى به العالمين؟ ﴿**ورفعنا لك ذكرك**﴾.

وسنة الحياة كذلك، الجد والجهد والتصبر يتبعها الثمر: ﴿**فإن مع العسر يسرًا * إن مع العسر يسرًا**﴾.

والمطلوب منك ـ بعد ـ إذ فرغت من العمل أن تستأنف العمل، لا مجال للراحة: ﴿**فإذا فرغت فانصب* وإلى ربك فارغب**﴾[1].

هكذا رأينا الإيواء بعد اليتم، والهداية بعد الحيرة والتوقف، والغنى بعد العيلة.

والمعاناة التى ظهرت فى حياة النبى الخاتم جعلته دقيق الإحساس بآلام الناس، فهو يحزن لها، ويسارع إلى تجفيفها، أو تخفيفها، وكان حسه شاملا لمختلف الآلام المادية والأدبية، فهو يود أن ينفيها كلها عن حياته، وحياة غيره..

ومن الذى يقصد وجهه ويلتمس حماه عند هجوم البأساء والضراء؟ اللّه وحده، إنه الحرز الآمن، والمأوى الحصين، ومن ثم ذكره، ودعاه بإلحاح، وأدب.

وهو عندما يجأر بأسماء اللّه الحسنى يعلم الألوف المؤلفة أن هذا هو الطريق فاسلكوه،

---

(١) سورة الانشراح: ١ ـ ٨.

هذا هو الأمل فانشدوه : ﴿**وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعانِ فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون**﴾[1] .

إن محمدا ليس كاهنا يقول للمذنبين : تعالوا إلى معترفين آغفر لكم . تعالوا إلى مثقلين مرهقين أخفف عنكم وأرحمكم . . كلا إنه يقول : ادعوا الله معى . ادعوا الله لأنفسكم . وأنا وأنتم ومن فى السموات أصفار إن لم يشأ هو أن يجعلنا شيئا . . إنه يجير ولا يجار عليه ، ويحكم لا معقب لحكمه ﴿**وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير**﴾[2] .

ونثبت فى هذا المجال جملة من الأدعية التى كان يدعو بها . ويرغب إلى المؤمنين أن يتقربوا إلى الله بترديدها :

«اللهم إنى أسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك . والسلامة من كل إثم . والغنيمة من كل بر ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار» .

«اللهم ألهمنى رشدى ، وأعذنى من شر نفسى» .

«اللهم إنى أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة» .

«اللهم إنى أعوذ بك من البرص ، والجنون ، والجذام ، وسيئ الأسقام» .

«اللهم إنى أعوذ بك من شر سمعى ، ومن شر بصرى ، ومن شر لسانى ، ومن شر قلبى» .

«اللهم إنى أعوذ بك من فتنة النار ، وعذاب النار ، ومن شر الغنى والفقر» .

«اللهم إنى أعوذ بك من منكرات الأخلاق ، والأعمال ، والأهواء» .

«اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل والبخل والهرم وعذاب القبر» .

«اللهم آت نفسى تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها» .

«اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها» .

---

(١) سورة البقرة : ١٨٦ .　　(٢) سورة الأنعام : ١٧ .

«اللهـم إنى أعـوذ بـك من زوال نعمتـك، وتحول عافيتـك، وفجـآة نقمتك، وجميـع سخطك».

«اللهم إنى أعوذ بك من شر ما عملت، ومن شر ما لم أعمل».

«اغفر لى خطيئتى وجهلى، وإسرافى فى أمرى، وما أنت أعلم به منى».

«اغفر لى جدى وهزلى، وخطئى وعمدى، وكل ذلك عندى».

«اللهم إنى ظلمت نفسـى ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفـر لى مغفرة من عندك، وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم».

«اللهم اهدنى وسددنى».

«اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسـل والجبن والبخل والهرم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، وضلع الدين، وغلبة الرجال».

«اللهم اغفر لى، وارحمنى، وعافنى، وارزقنى».

«اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك».

«اللهم إنا نعوذ بك من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء».

«اللهم اغفر لى، وارحمنى، واهدنى، وعافنى، وارزقنى».

«اللهم إنى أسألك الهدى، والتقى، والعفاف، والغنى».

«اللهم اغفر لى ذنبى كله، دقه وجله، وأوله وآخره، وعلانيته وسره».

«اللهم إنى أعوذ بك من شر الخلق، وهم الرزق، وسوء الخلق».

«اللهم إنى أعوذ بك من الشقاق، والنفاق، وسوء الأخلاق».

«اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، علانيته وسره، ولك الحمد إنك على كل شـىء قدير. اغفر لى ما مضـى من ذنوبى، واعصمنى فيما بقـى من عمرى، وارزقنى أعمالا زاكية ترضى بها عنى، وتب على».

«اللهم إنى أعـوذ بك من الفقر إلا إليـك، ومن الذل إلا لك، ومـن الخوف إلا منك، وأعـوذ بك أن أقـول زورا، أو أغشى فجـورًا، أو أكون بـك مغـرورًا وأعوذ بـك من شماتـة الأعداء، وعضال الداء، وخيبة الرجاء، وزوال النعمة، وفجاءة النقمة».

«اللهم إنى أعوذ بك من العطب ، والنصب ، وأعوذ بك من وعثاء السفر وسوء المنقلب» .

«اللهم إنى أعوذ بك من الزيغ ، والجزع ، وأعوذ بك من الطمع فى غير مطمع» .

«اللهم إنى أعوذ بك من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، وأعوذ بكلمات اللّه التامات من شر ما خلق» .

«اللهم إنى أعوذ بك أن أظلم أو أظلم ، أو أبغى أو يبغى على ، أو أطغى أو يطغى على» .

«اللهم اجعلنى لك ، ذكارًا لك ، شكارًا لك ، مطواعا لك ، مخبتا إليك أواها منيبا . رب تقبل توبتى ، واغسل حوبتى ، وأجب دعوتى ، وثبت حجتى ، واهد قلبى ، وسدد لسانى ، واسلل سخيمة صدرى» .

«اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وأرضنا وارض عنا» .

حسبنا هذا القدر من توجه محمد إلى ربه ، وقبل أن نتدبر بعض ما سقنا نسأل : هل فى تاريخ القارات الخمس بشر أحب اللّه تبارك وتعالى بأحر من هذه العواطف؟

هل فى تاريخ القارات الخمس عابد ضارع إلى اللّه بأخلص من هذه العبارات .

إننا نقول لمن يستغربون اتباعنا لمحمد : هاتوا لنا بشرًا مثله ، له باللّه أزكى من هذه العلاقة ، ونحن نتبعه . .

إننا نحن الذين نرثى لمن جهل محمدًا أو عاداه ، ونستغرب العمى الذى حجبهم عنه . .

إن أفئدة الخلائق ـ حين تهتدى ـ وراء فؤاد محمد وهو ينبض بتوحيد اللّه وتمجيده ، وجوارحها ـ حين تخضع ـ وراء كيانه حين يتابع بين ركوعه وسجوده . . تكون فى أزكى أحوالها وأشرفها . . نعم إن الإنسانية الراشدة يمثلها هذا العلم المفرد ، الذى تفانى فى ذكر اللّه وطاعته .

وإذا افترضنا أن كل ما يمتلك قلب المرء دون ربه صنم ، سواء فى ذلك المال والهوى وحب النفس ، وحب الغير ، فإن الإنسان الذى حطم الأصنام كلها ، وجعل المرء للّه وحده هو محمد . . الذى امحت من بصيرته ظلال الأشياء ، ولم يبق فيها إلا إجلال اللّه ، وإعظامه . .

وراء ذلك التقى النقى تقف جماهير هائلة من القانتين، وقلب كل منهم يؤمن على دعائه وهو يهتف بربه: «اللهم اجعلنى لك، ذكارًا لك، شكارًا لك».

والأدعية التى أثبتناها فى هذا الفصل تشير إلى جملة أمور:

أولها: أن الرسول يكره المرض، خصوصًا العضال منه، ومن منا يحب أنواع الحمى والسرطان؟ إيثار العافية فطرة الله فى الأنفس، وما يحب الأوجاع إلا مختل المزاج.

ومن ثم رأينا النبى عليه الصلاة والسلام يدعو ربه طالبًا سلامة الحواس والأعضاء، مستعيذًا به من السقام، والعجز، والهرم.

والمعروف من سيرته صلى الله عليه وسلم أنه كان متين البنيان يهزم المصارعين، ويسير المسافات الشاسعة دون إعياء، ويحمل أعباء الجهاد دون نكوص..!!

والمرء يدهش لأناس يجعلون النحافة والشحوب أمارات التقوى، قد ظهر هذا الخلل بين الهنود أولا، ثم نقله النصارى إلى عناصر الرهبانية ثم نقله جهلة الصوفية إلى الإسلام.

ونشأ عن ذلك أن البعض اعتبر الفحولة» قدحًا فى الإنسانية أو نقصًا فى السمو الروحى.. كأن المخنثين وأشباههم يصعدون إلى مستوى الملائكة بالضعف الجنسى..

الواقع أن محمدًا كان مثالا عاليًا للبشر، صادقًا مع منطق الطبيعة، عندما سأل الله البعد عن الآفات والعلل، فإذا عرا المرء شيء بعد ذلك من المتاعب صبر عليه وسلم لله فيما أراد، وقال كما علمنا الله: ﴿**إنا لله وإنا إليه راجعون**﴾.

الأمر الثانى: أعلن النبى كرهه للفقر والدين، وشتى الأزمات التى تعكر الصفو وتذل النفس، وعندى أنه من السخف تحبيب العيلة إلى الناس باسم الله.

والفرق بارز بين الكفاية الواجبة، والزيادة المغرية بالطغيان والعبث وقد يتفاوت حد الكفاية بين شخص وآخر، والمهم أن صاحب الرسالة كان يسأل الله— كما جاء فى بعض الآثار— عيشًا قارًا، ورزقًا دارًا، وعملا بارًا.. وكان كثير الدعاء: «ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار».

فإذا عرض حصار، أو وجب كفاح، تحمل القلة بجلد، ولم يفقد البشاشة، والاتزان..

وإذا أقبل الكثير صرفه إلى الآخرين بسماحة ورغبة، وهناك يقين بأن شيئًا من أعراض

الدنيا لم يملكه، بل أمره كما جاء فى دعائه: «اللهم اجعل حبك أحب إلى من نفسى، وأهلى، ومالى، وولدى، ومن الماء البارد على الظمأ». .

الأمر الثالث: هناك ناس يكرهون من فوقهم ويحقرون من دونهم وهذا الصنف السيئ يملأ جنبات المجتمع، وقد أعلن عليه الإسلام حربًا صريحة فقال النبى عليه الصلاة والسلام: «ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه».

والنبى الكريم يلقى الناس بشعور واحد، إنه لا يريد أن يكون جبارًا فى الأرض أو ملكًا على العباد، إنه لا يريد علوّا فى الأرض ولا فسادًا، وفى الوقت نفسه يجب أن ينجيه اللّه من استطالة السفهاء، وجور المعتدين. .

من أجل ذلك كثر فى دعائه الاستعاذة من الفتن والبغى والغدر والجهل، وكل ما يخدش كرامة الإنسان الكريم على نفسه. .

ومع ذلك قبل أن يهون فى ذات اللّه ويشتم ويروع. . وكل ما حرص عليه ألا يكون غاضبًا منه: « . . إن لم يك بك على غضب فلا أبالى، ولكن عافيتك أوسع لى».

وهنا نقرر حقا للنبى عليه الصلاة والسلام نبهنا إليه، ورغب إلينا فيه هو أن نصلى عليه. . وما معنى الصلاة عليه؟ إنها استرحام مقرون بالثناء. .

أى أن المؤمنين يسألون اللّه لنبيهم محمد، علو شأن، وزيادة فضل كفاء ما أسدى لهم من جميل، وقام به من جهاد. . !!

وقد أمرنا اللّه أن نصلى على نبيه، وأخبرنا أنه ـ تبارك اسمه ـ يصلى هو وملائكته على هذا النبى الكريم، كما جاء فى القرآن أن اللّه وملائكته يصلون على المؤمنين، فما معنى هذه الصلوات؟

ظاهر من الصلاة على المؤمنين أنها توفيق لهم وبركة فى سعيهم، وأنها عون من اللّه لإخراجهم من الحيرة والشرود والمضايق إلى السعة والضياء والاستقامة، وهى نابعة من رحمة اللّه وفضله، وذلك ما تشير إليه الآية: ﴿**هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما* تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرًا كريمًا**﴾[1].

---

(١) سورة الأحزاب: ٤٣، ٤٤.

ويزداد هذا العطاء للمصابين من أهل الإيمان، الذين يختبرون فى أنفسهم وأموالهم. فلا يهتز يقينهم، ولا تنتهى بالله صلتهم، بل يسلمون ويسترجعون: ﴿**أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون**﴾(١).

فإذا كان المؤمنون الصابرون يلقون من اللّه هذه الحفاوة، فكيف بالإنسان الذى حمل الجهد الأكبر فى غرس الإيمان، ووقف دونه يذود شياطين الإنس والجن، وربط حياته بهذه الغاية الشريفة، فلا هم له إلا هداية الناس، ولا فرحة له إلا أن يعبد اللّه فى الأرض؟

إن الملأ الأعلى يرقبون كفاحه بإعجاب. ويدهشون كيف ـ وهو الفرد الضعيف المتجرد ـ هزم المبطلين، ومحا جاهليتهم، وأقام دولة التوحيد وأمته الكبرى. .

ذاك معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿**إن اللّه وملائكته يصلون على النبى يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليمًا**﴾(٢). إن صلاتنا عليه تصديق برسالته وانتصار لها، وولاء لصاحبها، وتحية إعزاز وحب . . إنها الرباط الجامع بين القائد وجنده، أو الإمام وأتباعه على طاعة اللّه، والتزام نهجه، والبقاء عليه إلى يوم اللقاء الأخير. . !!

ذلك . . وكل شىء فى الكون يشارك فى التسبيح للّه والصلاة له: ﴿**ألم تر أن اللّه يسبح له من فى السموات والأرض والطير صافَّات كل قد علم صلاته وتسبيحه واللّه عليم بما يفعلون**﴾(٣)؟

ونحن نؤثر فى الصلاة على رسول اللّه ما ورد من صيغ سهلة واضحة، ونكره الصيغ المتكلفة أو المبهمة التى ألفت لها كتب، وانعقدت مجالس واخترعت للنبى العظيم أسماء ما أنزل اللّه بها من سلطان. .

وليس المهم ترديد عبارات بليغة وإنما المهم عرفان الجميل للنبى الصالح المصلح، وتقدير الجهاد الذى محا به ظلمات الجاهلية وكشف أشباحها. وأسس دولة للحق أعزت من يستحق العزة، وأهانت من يستحق الهوان. .

هذا هو المعنى الحقيقى للصلاة على النبى. وهو ما رصدت له الأجور المروية فى هذه القضية، لا ما يهرف به أدعياء الحب الذين لا يثبتون فى الدفاع عن سنة، أو حماية شعيرة. .

---

(١) سورة البقرة: ١٥٧.
(٢) سورة الأحزاب: ٥٦.
(٣) سورة النور: ٤١

نعم فى المجاهدين عن الدين والمقدرين لرسوله يساق الحديث: «من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشرًا» وحديث عبدالله بن مسعود أن رسول الله قال: «أولى الناس بى يوم القيامة أكثرهم على صلاة» وعن أبى هريرة: «لا تجعلوا قبرى عيدًا، وصلوا على فإن صلاتكم تبلغنى حيث كنتم».

ولعالم الأرواح سنن فوق ما ندرك فى عالم المادة تجعل هذا البلوغ ميسورا، ولا نحب أن نوغل فى هذه الأمور.

وفيما قرأنا، ونقرأ من أدعية النبى الكريم نرى طول نفسه فى الاستغفار، كما نرى أن القرآن الكريم نسب إليه ما نسبه هو إلى نفسه من ذنوب غفرت له بفضل الله فما معنى ذلك؟ وماذا صنع مما يؤاخذ به؟؟

ونحن نجيب على ذلك بهدوء، فإن صفحة محمد صلى الله عليه وسلم هى أنقى صفحة بين أهل الأرض والسماء، وما نعرف أحدًا تبعته الأبصار فى صغره وكبره، ويقظته ومنامه، وسره وعلنه، كما تبعت محمدًا وأحصت عليه كل شىء..

وماذا قال أعداؤه عنه مما يخدش البطولة أو ينقص المروءة؟.. لا شىء..!!

ما نقم منه الناقمون إلا أن الضربات التى كالها للباطل ظل يترنح منها إلى آخر الدهر، وأن منهجه فى توحيد الله، وتحشيد الناس على عبادته، لم يقترب منه أحد من الأولين، والآخرين..

ولم ينسب إليه ـ ولو بطريق الكذب ـ ما نسبه أهل الكتاب إلى أنبياء الله من سكر، وزنى، وقتل، وختل..!!

وأنبياء الله كلهم براء من هذا الاختلاق، وإمامهم الشامخ محمد بن عبدالله أسمى قدرا، وأعز مكانًا..!!

إذن فمم الاستغفار؟ إن التفاوت بين النفوس كبير جدا، وذلك أن ما تملك من طاقات مادية وأدبية يختلف اختلافا واسعًا، وموقفها ممن وهب لها هو الذى يحدد نجاحها ورسوبها، أو تقدمها وتأخرها، ولا عبرة بظاهرة العمل.

إن الأرنب يقدر فى لحظات على اجتياز عدة أذرع على حين تستغرق السلحفاة فى ذلك أمدًا، ولا مكان للومها على بطئها إذا كانت قد بذلت وسعها..

والبشر ليسوا سواء فى هممهم ونظراتهم وإمكاناتهم وهو مسئولون أمام الله على قدر ما

وهب لهم من تلك الأنصبة، ومعنى ذلك أنه قد يقبل من أحدهم ما يرفض من الآخر. ولعل ذلك معنى قول أبى الطيب :

ويختلف الرزقـان، والفعل واحد   إلى أن يرى إحسان هذا لذا ذنبا

نعم. قد تكون الحسنة من هذا سيئة من ذاك، لبعد ما لدى كليهما من مواهب عقلية وحسية. ولذلك قالوا :

«حسنات الأبرار سيئات المقربين»!!!

والواقع أن ما يقبل من شخص عادى قد يعد هنة من رجل عبقرى. ومن هنا يمكن القول بأن ما ينسب ـ حينًا ـ إلى الأنبياء من ذنوب إنما هو على مقدار درجاتهم، وإن هذه الذنوب ليست ما يواقع العامة من كبائر أو يتلوثون به من أوحال . .

وقد كتب الأستاذ العقاد مقالاً عن المقاييس الأدبية جاء فيه أنه ينبغى فى بعض الأحوال النظر إلى من قال لا إلى ما قيل . . فإن أبا العلاء المعرى عندما ينشد :

تعب كلها الحياة فما أعـ   ـجب إلا من راغب فى ازدياد

فإنه لا يعنى ما يعنيه الحمالون فى محطات السكة الحديد، أو ما يعنيه الفلاحون. وهم ينقلون الأتربة، والبذور. .

وهذا كلام حسن. ومن السخف تصور المرسلين يقترفون خطايا الدهماء إن ما يستغفرون له من أخطاء شىء آخر يتفق مع معادنهم المنتقاة.

والنسبة أمر لابد منه، فركاب الطائرات قد ينظرون من مكانهم العالى إلى ركاب القطارات، ولكن ركاب السفن الفضائية يضحكون من ركاب الطائرات. . ويأخذ الأمر صفة أخرى عند سكان الكواكب. .

على أن هناك منطقًا آخر يتمم هذه النظرة التى شرحناها فيما ينسب إلى الأنبياء من ذنوب . . إن الإنسان الواحد ـ فيما يمر به من أطوار الكمال ـ يمكن أن يكون عدة أناس . . إنه يرقى من سماء إلى سماء وحاله فى الأولى أدنى من حاله فى الأخرى. وهو ـ إذ ينظر إلى دنوها بالنسبة إلى ما صار إليه ـ يستغفر ربه، ويستصغر ما قدم له، ويعده فعلا رديئًا ما كان ينبغى منه، وكلما مضى فى معراج الارتقاء. وتكشف له من آيات الجمال الأعلى ازداد وها بالتمجيد والتحميد، وازداد كذلك لهجا بالتوبة والاستغفار . .

ونحن على صعيدنا القريب عندما نرمق محمدًا صلى اللّه عليه وسلم فى عبادته وقيادته نرى أنه فى فلكه العالى يرتفع من أفق إلى أفق. فآيات القرآن تزيد يوما بعد يوم. ومراحل الجهاد تطرد مرحلة بعد مرحلة، وأعباء الهداية العامة تشتد وطأتها، وتتداح دائرتها . .

إن الذى صاح على الصفا يدعو عشيرته الأقربين أخذ يكاتب ملوك العصر وجبابرة الأرض . . والذى خاصم نفرًا يعدون على الأصابع أول أمره شرع يعد الجيوش لمقارعة الضلال وكسر كبريائه . . ولمن هذه المعاناة الموصولة فى جهاد النفس وجهاد الناس؟ للّه وحده . .

لقد قام الليل إلا قليلا من أول أيام البعثة . . ومضى على الدرب الطويل يواصل الصلاة والصيام والعطاء، ويقاوم الوثنية والخرافات وعوج الجهال والمتعالمين . . هل استراح يومًا؟ كلا . . كلما شعر أن اللّه اختاره لهذه الرسالة أفنى قواه فى البلاغ والجهاد، وحطم العوائق ومضى فى إعلاء اسم اللّه، فلا عجب إذ تنزل عليه قبيل الفتح الأكبر: **﴿إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا * ليغفر لك اللّه ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك﴾**[1].

إن الغفران هنا ليس لذنوب واقعة أو متوقعة. وإنما هو تبشير المجاهد فى سبيل ربه بأنه نجح فيما كلف به، وأن الشعور بالتقصير أو العجز عن الوفاء بحقوق اللّه كما يحسها القائد الضخم أمر متجاوز عنه .

لا ذنوب هنا مما يألف العوام. إنما هو إحساس نبى الأنبياء. بأنه - وإن أذاب نفسه فى مرضاة ربه - فهو مقصر فى حقه. متخلف عن أداء واجباته العظام . .

من أجل ذلك كرمه اللّه. وساق له البشرى . .

وعندما يقول اللّه لعبد: غفرت لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فليس معنى هذا إسقاط التكاليف، وإعطاء المرء حرية أن يفعل أو يترك . . هذا فهم بادى السوء والغفلة، وإنما المراد أن العبد بلغ مستوى من الرفعة لن ينحدر عنه. وأن مستقبله لن يكون إلا امتدادا لحاضر طيب موصول باللّه مراقب له . .

وقد وعد الرسول بهذه المغفرة الشاملة، كما أن الرسول بشر بهذه المكانة أهل بدر. وعثمان ابن عفان لما أعطى مالا ضخما فى غزوة العسرة .

---

(١) سورة الفتح : ١، ٢ .

وفى الصحيح أن اللّه بشر بهذه المنزلة الرجل التائب الذى يستغفر اللّه من قلبه فى أعقاب ذنبه قائلا : «علم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويؤاخذ به . . افعل ما شئت فقد غفرت لك» . .

إن المفهوم من هذا أن اللّه يكتب للعبد حقه أو صفته من الحال الثابتة التى بلغها فى حياته، ويسجلها له قبل وفاته، لأنه يعلم منه أنه لن يتعرض بعدها لنكسة . .

هل الدعاء من الأسباب العادية؟

نستطيع أن نقول : نعم إذا تصورنا القضية ليست أكثر من استعانة عاجز بقادر . .

إن الولد عندما يقول لأبيه : هات لى كذا مما يؤمل ويحب ، فهو يستعمل السبب المتاح له ، أى الوالد المحب ، وإن كان بوسائله الخاصة لا يقدر .

والأنبياء عندما لجئوا إلى الله يدفعون به أذى الكافرين كان الدعاء سببهم العادى : ﴿**كذَّبت قبلهم قوم نوح فكذَّبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدُجر* فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر* ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر* وفجرنا الأرض عيونًا فالتقى الماء على أمر قد قدر . .**﴾[1] .

وليس كلامنا الآن فى هذا المنحى . وإنما نقصد ما روى فى الصحاح من أذكار ورقى يرددها المؤمنون فى أوقات معينة ، أو فى أوجاع وأحوال يضيفون بها ويستعينون بالله لدفعها . ثبت فى الصحاح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أخذ مضجعه ـ استعد للنوم ـ نفث فى يديه . وقرأ المعوذتين ومسح بهما جسده . .

وفى رواية كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه . ثم نفث فيهما . وقرأ فيهما : ﴿ **قل هو الله أحد** . . ﴾ و ﴿ **وقل أعوذ برب الفلق** . . ﴾ و ﴿**وقل أعوذ برب الناس** . . ﴾ ثم مسح بهما ما استطاع من جسده . يبدأ بهما على رأسه ، ووجهه ، وما أقبل من جسده . يفعل ذلك ثلاث مرات .

قال رجال اللغة : النفث نفخ لطيف بلا ريق .

إن هذه السور الثلاث تحتوى على توحيد الله . وعلى تمام تنزيهه . ثم تدفع بالمرء فى أحضان العناية العليا متحصنًا من جميع الشرور المادية والمعنوية التى تزعجه .

---

(١) سورة القمر : ٩ ـ ١٢ .

وهنـاك رقى كثيرة سنشير إلى بعضهـا يستشفـى بها المسلم مـن الأوجـاع التـى تنتابـه ، واتصالها بعالم الغيبيات واضح ، إذ لا يدرى العقل سر النفث ولا سر العدد الوارد .

وأجدنى هنا مسوقًـا إلى ذكر حقائق طبية مقررة تقفنا هى الآخرى على حـافة عالم الغيب متحيرين . إن الجراثيم التى تحمل العلل قد تهاجم بعض الأجسام بضراوة ، على حين نفقد شراستها حين تتصل بأجسام أخرى ، فما تمسها بأذى يذكر . . ! !

وأحيانـا تشتد وطأة الجراثيم الهاجمة ، ومـع ذلك تستقبلها مـن الجسم مناعة غـريبة . . وربما حمل الإنسان أسباب المرض دون أن يعتل به ، أو يتألم منه . . ما سر ذلك؟

من الذى أفقد الجراثيـم قدرتها على الإصابة ابتداء وانتهاء؟ نحـن المؤمنين نقول : اللّه . ونسأل الشاكين : من غيره؟ إن عالم الحس بالنسبـة إلى عالم الغيب ضئيل محدود ، والتحكم فى أسباب المرض والعافية أقله فى أيدينا ، وأكثره بعيد عن متناولنا . .

والتداوى حق ، وقد وصفـت السنة عقاقير وأغذية وأشربة شتـى للنجاة من الأمراض ، ولكن يبقـى قبل ذلـك كله ، وبعـد ذلك كله ، هـذا السبب الخفـى الذى يجعـل الجراثيم تستأنس حينـا ، وتفترس حينًا آخر ، الذى يجعـل العدوى تنتقل من الهبـاء ، ولا تنتقل مع طول المخالطة والالتصاق . . ! !

من أجـل ذلك يبقى دعـاء الرب الأعلى ، واهـب الأسباب قدرتها على العمـل إذ شاء ، وتاركها صفرًا لا أثر لها إذا شاء . . ! !

وعلى ضوء هذا البيان نفهم المرويات التى نثبتها هنا واثقين من صدق نتائجها .

عن عثمان بن أبـى العاص أنه شكا إلى رسـول اللّه صلى اللّه عليه وسلـم وجعا يجده فى جسده فقال له رسـول الله صلى الله عليه وسلم : «ضع يدك على الـذى تألم من جسدك ، وقل : باســم اللّه ـ ثـلاثًا ـ وقـل سبع مرات ـ أعـوذ بعزة اللّه ، وقـدرته من شر مـا أجد ، وأحاذر» .

وعن أنس رضى اللّه عنه أنه قال لثابـت رحمه اللّه : ألا أرقيك برقية رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم؟ قال : بلى . قـال : «اللهم رب الناس ، مذهب البأس أشـف أنت الشافى ، لا شافى إلا أنت ، شفاء لا يغادر سقمًا» ! !

وهذه قصة طريفـة رواها البخارى ونحب أن نثبتها ونتدبرهـا . فعن أبى سعيد الخدرى

رضى اللّه عنـه، قال: انطلق نفر من أصحـاب رسول اللّه صلى اللّه عليـه وسلم فى سفرة سافروها، حتـى نزلوا على حى من أحياء العـرب فاستضافوهم فأبـوا أن يضيفوهم، فلدغ سيد ذلك الحى. فسعوا له بكل شىء لا ينفعه شىء..

فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذيـن نزلوا لعلهم أن يكون عندهم بعض شىء. فأتوهم، فقالوا: يأيها الرهط، إن سيدنا لدغ، وسعينا له بكل شىء لا ينفعه شىء.. فهل عند أحد منكم شىء؟

قال بعضهم: إنى واللّـه لأرقى، ولكن واللّه لقد استضفناكم فلم تضيفـونا فما أنا براق لكم حتى تجعلـوا لنا جعلا. فصالحوهم على قطيـع من الغنم، فانطلق يتفـل عليه ويقرأ: «الحمد للّـه رب العالمين...» ـ يعـنى ينفث بها على اللـديغ ـ فكـأنما نشط مـن عقال. فانطلق يمشى وما به قلبة[1]، فأوفوهم جعلهم الذى صالحوهم عليه.

وقال بعضهم: اقسمـوا، فقال الذى رقى: لا تفعلـوا حتى نأتى النبـى صلى اللّه عليه وسلم، فنذكـر له الذى كان.. فننظر الذى يـأمرنا.. فقدموا على النبـى، صلى اللّه عليه وسلم، فذكروا له فقال للصحابى الذى رقى المريض بأم الكتاب: «وما يدريك أنها رقية»؟ ثم قال: «قد أصبتم، اقسموا، واضربوا لى معكم سهما». وضحك النبى لما كان.

وفى رواية مشابهة قال النبى للراقى: «كل فلعمرى لمن أكـل برقية باطل لقد أكلت برقية حق».

لقد استوقفتنى هـذه القصة من وجوه عديدة.. فإن فاتحة الكتـاب سورة عظيمة القدر بما حوت من تمجيد للّـه ودعاء، وكان ظنى أنها تنفع قارئها وحده، أمـا أن تنفع المقروء له فذاك ما أثبتته القصة هنا..

والقصة تحكى أن هـؤلاء النفر من صحابـة الرسول نزلـوا بقوم لئام، رفضوا أن يقبلـوهم ضيوفًا، وهـذه خسة منكورة.. ترى هل فعلوا ذلـك بخلا أم فعلوا ذلك كرهـا للإسلام، والذين دخلوا فيه؟ إننى أرجح السبب الأخير..

وكان من قدر اللّه أن أفعى أو عقربًا لـدغت كبير القوم وتركته لا قرار له ولا يجدى معه شىء. مما اضطر أهله أن يلجئوا للصحابة طالبين نجدة..!!

---

(١) القلبة بفتح القاف واللام: الألم والعلة.

والغريب أن الذى داوى المريض بالفاتحة ينفث بها على المصاب هو الذى توقف فى الانتفاع من المكافاة التى اشترطها، وشك فى جواز الأكل منها. . وهو تصرف يدل على أن الراقى كان يجمع بين صدق الإيمان وشدة الورع. .

وهنا موطن العبرة. . فليس كل قارئ يشفى، ولا قراءة تداوى، ولكن للّه عبادا إذا أرادوا، وإذا استنزلوا الفضل نزل. .

وقد فرح الرسول صلى اللّه عليه وسلم بالقصة كلها، وأحب إرضاء الراقى، فشاركهم فى الطعام من المكافأة المبذولة. . !!

ولم لا يفرح بأثر الوحى النازل عليه إذا صحبه اليقين الحار والعمل البار؟ إن الجانب الغيبى فى هذه المرويات ما يمكن إنكاره، وكذلك ما يمكن تعميمه بين أهل السبق والتقصير، أو بين من هم باللّه علاقة وثيقة، ومن يمتون إليه بأوهى الصلات. .

وأغلب الصالحين يستمد صحته الجسدية، ومقاومته للأدواء والأوجاع من هذا النبع الجياش فى فؤاده يمده بعفو اللّه، وعافيته. .

ونعود إلى إمام الصالحين محمد بن عبداللّه لننقل عنه أنه كان يغالب المتاعب العارضة باللجوء إلى اللّه والاستعاذة به. . قد تقول: إننا عرفنا عنه سلامة البدن وقوته، وأنه أوتى من ذلك ما لم يؤت غيره، فمن أين تجيئه هذه الأسقام، الملجئة إلى التعوذ، والضراعة؟

ونقول: لا ريب أن خاتم المرسلين أوتى بسطة فى العلم والجسم تعينه على أضخم رسالة حملها بشر. . لكن سهر الليل فى التهجد والتلاوة وسبح النهار فى العبادة والكدح، والجهاد المتصل، وحمل آلام الخلق، واطراد هذه المعاناة ربع قرن، وهى تربو، ولا تخف. . مع تخفف مستغرب من الطعام والشراب، هذا كله أعيا الجسد الجلد، وأرهقه.

لقد رمقت عددًا من كبار القادة فوجدتهم يتناولون مقادير كبيرة من المنبهات والمقويات، ويستهلكون مقادير أخرى من المأكل والمشارب، على حين رأيت فى سيرة محمد أنه يحتاج إلى الطعام، فيؤتى له بخل - إذ لا يوجد غيره - فيغمس فيه اللقيمات المتاحة، وهو راض يقول: «نعم الإدام الخل. .» أو لعله لا يجد شيئًا فينوى الصيام إلى الغروب.

أى جسد يتحمل مع هذا الإقلال أعباء الغزوات التى قصمت الوثنية، وأعباء التربية التى أطلعت من الجزيرة القاحلة رجالا أضاءوا العالمين. .

إن الإمدادات الروحية الهابطة من السماء هى من وراء هذه الأعصاب ـ الحديدية . . ذكره للّه ، ودعاؤه للّه ، وتفويضه للّه . .

جاء فى الصحيح أنه كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث ، قيل للزهرى ـ أحد رواة الحديث ـ كيف ينفث ؟ قال ينفث على يديه ، ثم يمسح بهما وجهه .

لقد ظل كذلك طوال عمره ، ففى رواية أخرى أن النبى كان ينفث على نفسه فى المرض الذى توفى فيه بالمعوذات . . قالت عائشة : فلما ثقل كنت أنفث عليه بهن ، وأمسح بيد نفسه لبركتها . . «تعنى ـ رضى اللّه عنها ـ أنها تمسح جسده بيده هو التماس بركتها»!

ذاك طبيبه الخاص فى دنيا الناس . . !! إذا كان للرؤساء أطباء خاصون بهم . . !!

وكذلك كان يغالب الأسقام ، حتى استراح مع الرفيق الأعلى . .

إن تعبيرنا هنا بالجانب الغيبى قد يصح بالنسبة إلى جمهرة الناس ، فإن ظلال الأشياء لا تغادر بصائرنا ، ورغائبنا الخاصة قلما تنفك عنا ، مع ما يخالط ذلك كله من يقين وإخلاص . . لكن الأمر بالنسبة إلى الأنبياء غير ما نتصور ، فهم فى شهود غالب يجعل إحساسهم برب الأشياء أسبق من حسهم بالأشياء نفسها .

ونبى الأنبياء عليه الصلاة والسلام كانت روحانيته عارمة ، والإشراق الإلهى على قلبه لا يلحقه أفول . . وكان جهده أن يرفع مستوى من حوله ، وأن يغلب ماديتهم بصفائه ، وسنائه . .

وذلك يجعلنا نلقى نظرة عجلى على أركان الإسلام لنرى كيف كانت معارج ارتقاء ، ومصادر تذكر دائم للّه ، ولنرى كيف انفرد هو بأدائها على نحو لا يدانى ولا يرام . . . !!!

الأركان العامة

كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا دخل الصلاة قال : «الله أكبر كبيرًا والحمد لله كثيرًا وسبحان الله بكرة وأصيلا . وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا مسلمًا وما أنا من المشركين . إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين» .

«اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت ، أنت ربى وأنا عبدك . ظلمت نفسى . واعترفت بذنبى فاغفر لى ذنوبى جميعًا لا يغفر الذنوب إلا أنت . واهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنى سيئها لا يصرف سيئها إلا أنت» .

«لبيك وسعديك ، والخير كله فى يديك ، والشر ليس إليك ، أنا بك وإليك . تباركت وتعاليت ، أستغفرك وأتوب إليك . . !!» .

ومعنى : الشر ليس إليك ، أنه لا يبدأ به عبدًا ، وإنما يجلبه العباد على أنفسهم بسوء عملهم : ﴿**وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير**﴾[1] .

وربما قال عليه الصلاة والسلام فى مفتتح صلاته : «اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب . اللهم نقنى من خطاياى كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس . اللهم اغسلنى من خطاياى بالماء والثلج والبرد !!» .

وربما قال : «سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك . . »!!

وربما قال فى ركوعه إذا ركع : «اللهم لك ركعت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت . خشع لك سمعى ، وبصرى ، ومخى ، وعظمى ، وعصبى» .

---

(١) سورة الشورى : ٣٠ .

وربما قال بعد الرفع من الركوع: «ربنا لك الحمد، حمدا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، ملء السموات وملء الأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد. . أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد ـ وكلنا لك عبد ـ لا مانع لما أعطيت، ولا معطى لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد» أى لا ينفع أحدًا ما قسمت له من دنيا عريضة، إنما ينفعه ما يلقاك به من تقوى وأدب. . !!

وربما قال فى سجوده: «سبحان ذى الجبروت والملكوت والكبرياء، والعظمة» أو قال: «اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك. سبحانك! لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك». !!

إننى عندما أتلو هذه العبارات المضيئة أشعر كأن الأنبياء كلهم، والملأ الأعلى معهم، يقفون وراء محمد صفوفًا صفوفًا، وهو يدعو بما أفاض اللّه على قلبه ولسانه، وهم يؤمنون، ويؤكدون. . !!

وقد أسأل: هل هناك عنصر من عناصر العبودية، أو معلم من معالم الرغبة والرهبة فات محمدًا، وهو يناجى ربه؟

هل أدى أحد من الملائكة المقربين، أو الرسل المكرمين تحية لرب العالمين أزكى من هذه التحية، أو مدحًا أسنى من هذا المدح، أو اعتذارًا على تقصير أرق من هذا الاعتذار. .

والتقصير هنا يرجع إلى واحد من أمرين: أن طاقة البشر محدودة والواجب كبير، أو أن عظمة الرب فوق ما يعى الواعون فالألفاظ تفنى، وحق اللّه أكبر مما يقولون. . !!

على أنه فى ميدان التعبد للّه، بحسن المعرفة وإسداء الشكر، نرى إنسانًا فذا، سبق سبقًا بعيدًا، تحبو البشرية وراءه، وهى مبهورة الأنفاس، وفى مسامعها أصداء تسبيح، وتحميد تتجدد، ولا تتبدد.

من هذا العابد المستغرق الأواه المنيب؟ إنه محمد بن عبداللّه.

ونهبط من هذا الأفق لنسمع فحيح بعض الأفاكين يقول: ليس محمد نبيا! ومن قبل ذلك استمعنا إلى سخفهم وهم يقولون: للّه ولد، وهو معه إله. . ويحكم!! إنه لا إله إلا اللّه، وإن محمدًا رسول اللّه. .

إن الصلاة هى الركن الثانى فى الإسلام، ولا مجال هنا لشرح أقوالها وأفعالها، وما سقناه من أدعية وأذكار ليس من قبيل الواجب، فالصلاة تتم بقراءات وأذكار دون ذلك، وإنما أردنا أن نشير إلى فن الذكر عند كبير العابدين.

والصلاة هى العبادة الأولى فى كل دين، وقد كانت الشغل الشاغل للنبى عليه الصلاة والسلام. وقد جعلها شارة التقوى، ومظهر الخضوع والتودد، وشعار الولاء المطلق لله رب العالمين.

وتوجد معابد لشتى الأديان، بيد أن الإسلام جعل العبادة ارتباطا بإله واحد. واستمدادا من إله واحد. واحتكاما إلى إله واحد، وعودة ـ فى النهاية ـ إلى هذا الإله الواحد.. !!

والنبى العربى محمد أفضل من عرف الخلق بهذا الإله الواحد، وحببهم فيه. وأشعرهم بأن ربهم أرحم بهم من الوالد والوالدة، وأعطف عليهم من كل صديق.

وقد بينا فى مواضع أخرى أن منهاج الإسلام فى التربية يجمع بين صفات الجلال وصفات الجمال، وما يستغنى البشر عن هذا الجمع، فهناك فراعنة تغريهم السلطة بالبغى، وهناك فقراء يعوزهم الدعم. أو مخطئون يلتمسون الهدى والمتاب.

فى هؤلاء وأولئك تقرأ قوله تعالى: ﴿**إن بطش ربك لشديد* إنه هو يبدئ ويعيد* وهو الغفور الودود* ذو العرش المجيد**﴾[1].

وما يحبب فى الله، وما يؤسس مشاعر الحب فى الأفئدة فيض غامر فى رسالة محمد عليه الصلاة والسلام، لا نعرف له نظيرًا فى أى تراث.

إذا اعترضتك مشكلة، ولم تدر كيف تتصرف بإزائها، فالجأ إلى ربك تستفتيه، وسله أن يوجهك إلى الأفضل، إنه منك قريب فلماذا تتركه؟؟

عن جابر بن عبدالله كان رسول الله يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: «إذا همَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل: اللهم إنى أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنت تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب.

اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى، وعاقبة أمرى ـ أو قال: عاجل أمرى وآجله ـ فاقدره لى، و يسره لى. ثم بارك لى فيه.

وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى ـ أو قال: عاجل أمرى وآجله ـ فاصرفه عنى واصرفنى عنه. واقدر لى الخير حيث كان. ثم أرضنى به. ويسمى حاجته».

---

(١) سورة البروج: ١٢ـ١٥.

استغربت من بعض أعداء محمد، وهم يقولون متهكمين: إن رب محمد جبار متكبر. . قلت: ليكن! هل يكسر جبابرة الأرض إلا جبار السماء، وهل يمحو كبرياءهم إلا الكبير المتعال؟؟

إن إنقاذ الدنيا من أولئك المدمرين رحمة مهداة. .

ومع ذلك فإن مؤدب الطغاة يقول للمنكسرين: أنا معكم جابر، ويقول للمستهدين: أنا لكم مرشد، ويقول لطلاب خيره: اسألوا اللّه من فضله إن اللّه كان بكل شيء عليما.

إذا كانت لك حاجة فتعال بها إلى ربك، إنه لن يتعب فى قضائها: ﴿**إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون**﴾[1].

عن عبداللّه بن أبى أوفى قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «من كانت له حاجة إلى اللّه تعالى، أو إلى أحد من بنى آدم فليتوضأ، وليحسن الوضوء، ثم ليصل ركعتين، ثم ليثن على اللّه عز وجل، وليصل على النبى صلى اللّه عليه وسلم، ثم ليقل: لا إله إلا اللّه الحليم الكريم، سبحان اللّه رب العرش العظيم، الحمد للّه رب العالمين. أسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك والعصمة من كل ذنب، والغنيمة من كل بر، والسلامة من كل إثم، لا تدع لى ذنبًا إلا غفرته، ولا همًا إلا فرجته، ولا حاجة هى لك رضا إلا قضيتها يا أرحم الراحمين».

وتنقضى الدنيا بأفراحها وأحزانها، وتنتهى الأعمار على طولها وقصرها، ويعود الناس إلى ربهم بعد ما أمضوا فترة الامتحان على ظهر الأرض ﴿**كما بدأكم تعودون* فريقًا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة**﴾[2].

أصبحت الدنيا ذكريات. . . وها هم أولاء بنو آدم يضعون أقدامهم على عتبات الآخرة. .

ويموت مسلم فى المدينة المنورة، ويقف النبى الكريم مصليًا على جنازته، ويقدمه إلى ربه قائلا: «اللهم اغفر له وارحمه، وعافه، واعف عنه، وأكرم نزله، ووسع مدخله، واغسله بالماء والثلج والبرد، ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله دارًا خيرًا من داره، وأهلا خيرًا من أهله، وزوجًا خيرًا من زوجه، وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر، ومن عذاب النار».

---

(١) سورة يس: ٨٢.

(٢) سورة الأعراف: ٢٩، ٣٠.

قال راوى الحديث : لقد تمنيت أن أكون ذلك الميت الذى ظفر بهذه الدعوات المباركات . .

واختار الشافعى من أدعية الرسول الكريم هذا الدعاء : «اللهم هذا عبدك ، وابن عبدك خرج من روح الدنيا وسعتها ومحبوبيها وأحبائه فيها إلى ظلمة القبر، وما هو لاقيه» .

«كان يشهد أن لا إله إلا أنت . وأن محمدًا عبدك ورسولك وأنت أعلم به»

«اللهم إنه نزل بك وأنت خير منزول به ، وأصبح فقيرًا إلى رحمتك وأنت غنى عن عذابه ، وقد جئناك راغبين إليك ، شفعاء له» .

«اللهم إن كان محسنًا فزد فى إحسانه ، وإن كان مسيئًا فتجاوز عنه . . وآته برحمتك رضاك ، وقه فتنة القبر وعذابه ، وأفسح له فى قبره ، وجاف الأرض عن جنبيه ، ولقه برحمتك الأمن من عذابك ، حتى تبعثه إلى جنتك يا أرحم الراحمين» .

الصلاة على المؤمنين كتاب موقوت ، ترتبط بحركة الشمس الظاهرة ، قبل الشروق بنحو ساعة ونصف ثم بعدما تتوسط كبد السماء ، ثم بعد ما تميل وتتضاعف الظلال ، ثم بعدما تغرب ، ثم بعد ما يختفى الشفق الأحمر . .

وكما يرعى المسلمون الشمس لضبط عبادتهم اليومية يرعون القمر لضبط فريضتى الصيام والحج . . إن الزمن فى حياتهم مطية إلى الآخرة ، وقد لفت النبى صلى اللّه عليه وسلم أنظارهم إلى الشمس فى سمائها الصاحية ، وإلى القمر وهو بدر تم ، وأشعرهم أنهم سوف يرون ربهم فى الدار الآخرة بهذا الوضوح .

أفما ينبغى الاستعداد لهذا اللقاء بأعمال تنضر الوجوه . وتجمل العقبى ؟

إن أهم الأعمال أن يذكر هذا الرب فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر ، وألا تكون مخلوقاته حجابا دونه ، أو عقبات أمام ما يجب له . .

وقد كان محمد صلى اللّه عليه وسلم ربانى الشعور والسلوك ، يستغل كل شىء لتحية اللّه ، وإعلان حبه ، وتقرير وحدانيته ، عن ابن عمر كان رسول اللّه إذا رأى الهلال قال : «اللّه أكبر ، اللهم أهله علينا باليمن والإيمان والسلامة والإسلام ، والتوفيق لما تحب وترضى ، ربنا وربك اللّه» .

وفى رواية أن نبى اللّه كان إذا رأى الهلال قال : «هلال خير ورشد ، هلال خير ورشد ،

هلال خير ورشد. آمنت بالله الذى خلقك - ثلاثًا - ثم يقول: الحمدلله الذى ذهب بشهر كذا، وجاء بشهر كذا».

هذا قلب عابد يرصد الزمن الدوار، ليحمد مقلب الليل والنهار، ويتفاءل بنعمة قادمة، ويشيع نعمة ذاهبة، إن الزمن عنده هبة مبذولة فى طاعة الله، وهو ما يضيع من هذا الزمن الساتر لحظة فى لهو أو غفلة، إنه فى صلاة، وصيام، وجهد، وسعى دءوب لقيادة الخلق إلى الله.

والناس إذا ذكر الصيام يذكرون رمضان، لأنه شهر الفريضة، ولكن النبى عليه الصلاة والسلام كان يصوم حتى يقال: ما يفطر، وقلنا: إنه كان فى رمضان يواصل الصيام أحيانا فما يفطر عند الغروب، وهذا من خصائصه التى تفرد بها.

وكلماته عندما يفطر تدل على نوع المعاناة التى كان يحسها فى صيف يجفف لهيبه الحلوق، ويرهق الأبدان. . فعن ابن عمر كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أفطر قال: «ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر إن شاء الله» وقد يقول: «اللهم لك صمت، وعلى رزقك أفطرت».

وعن عبدالله بن عمرو قال: سمعت رسول الله يقول: «إن للصائم عند فطره لدعوة ما ترد» قال ابن مليكة: سمعت عبدالله بن عمرو — راوى هذا الحديث - إذا أفطر يقول: «اللهم إنى أسألك برحمتك التى وسعت كل شىء أن تغفر لى».

سمعت متحدثًا كأنه يعتذر عن مناسك الحج، يقول: إن الله يختبرنا بما نعقل حكمته، وبما لا نعقل حكمته، لتظهر طاعتنا، فى هذا وذاك!!

قلت: تعنى أن المناسك التى كلفنا بها فى الركن الخامس غير معقولة؟ فسكت تهيبا، ثم قال: ذاك ما أريد، وأنا أطيع الله جل وعز فى كل ما يكلفنى به. .

قلت: إن هناك أمورًا كثيرة لا صلة لها بقضايا العقل، لا سلبًا ولا إيجابا ووصفها بأنها «لا معقولة» غير صحيح! فنحن نكتب لغتنا العربية من اليمين إلى اليسار، وأسرة الدول الغربية تكتب لغاتها من اليسار إلى اليمين، هذه أوضاع لا توصف بأنها مع العقل أو ضده، هذه شئون تواضع الناس عليها، ومن حقهم ذلك دون ملام على ما ساروا فيه، واختاروه لأنفسهم. . !!

عند استعراض الجيوش يكلف الجند بأداء التحية على نحو معين، فيرفعون السلاح

بحركة خاطفة، ثم يصوبونه إلى إحدى الجهات، ثم يردونه إلى أخرى، ثم يستقر على مناكبهم. ثم يتجهون صوب منصة القائد برءوسهم . . إلخ - ما هذا؟ أمور تواضع الناس عليها . . يمكن أن نرفض منها ما ينبو عن الذوق اللطيف. ويمكن أن نستملح ما يوائم طباعنا . . ! ! ولا صلة لهذا كله بقضايا المنطق العقلى . .

إن الإسلام يرفض ما يخالف العقل والفطرة، ولكنه لا يعترض المسالك البعيدة عن هذا المجال إلا إذا خدمت باطلا ! !

قال : تقصد أن أفعال الحج من هذا القبيل السائغ؟ قلت : نعم .

قال : لماذا يكون الطواف سبعة أشواط مثلا؟ قلت : السؤال الدورى يسقط تلقائيا، لأنه لو كان أقل أو أكثر لتكرر السؤال، لماذا كان سمك فلان، ولم يكن فلان، إنه سؤال دائر لا نلتزم له بإجابة، ومع ذلك فإن أفعال الحج فى جملتها معقولة، ولها حكم بينة . .

من حق الإنسانية أن تعتز بذكرياتها القديمة، وأن تحيط هذه الذكريات بأسوار من المهابة والتقديس إذا كانت تتصل بعقائدها وقيمها . . ومنسك الحج جزء من تاريخ جليل، ومفاتح لخزائن من الروحانية الدافقة والعاطفة الجياشة، ومن ثم كان الارتباط بها ركنا فى الدين . ﴿**ذلك ومن يعظّم شعائر اللّه فإنها من تقوى القلوب**﴾[1] .

ويحتاج هذا الكلام إلى شرح معقول! لماذا تنطلق قوافل البر والبحر والجو صوب البيت العتيق، مقبلة من القارات الخمس، وفى الأفئدة شوق وفى العيون بريق؟ الحق أن البيت المقصود جدير بهذا الإعزاز كله، فقد بناه أبو الأنبياء إبراهيم ليكون حصنا للتوحيد وملتقى للركع السجود بعدما اشتبك عليه السلام مع الوثنية الأولى فى صراع حياة أو موت. وقد انتصر إبراهيم فى معركة الوحدانية، ورفع هو وابنه إسماعيل قواعد هذا البيت توكيدا للنصر، ومراغمة للكفر: ﴿**إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركًا وهدى للعالمين* فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنًا ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن اللّه غنى عن العالمين**﴾[2] .

إن المسجد الأول فى العالم جدير بأن تشد إليه الرحال، وأن تجيء إليه الوفود بين الحين والحين لتؤدى له التحية . . . وكل مسجد يبنى فى المشارق والمغارب بعده ينبغى أن يرتبط

---

(١) سورة الحج : ٣٢ .

(٢) سورة آل عمران : ٩٦ - ٩٧

به وأن يتجه إليه، ولذلك كان هذا المسجد المحترم قبلة للمؤمنين كافة: ﴿**ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره**...﴾[1].

وشيء آخر في تاريخ الإنسانية يشدنا نحن المسلمين خاصة إلى هذه الكعبة المشرفة، أن أمتنا الكبيرة كانت أملا عندما بدأ هذا البناء، وأن رسالتنا الخاتمة كانت دعوة حارة عندما برزت هذه القواعد، كان إبراهيم وإسماعيل يقولان: ﴿... **ربنا واجعلنا مسلمَين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم* ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم**...﴾[2].

إننا نحن الذرية المسلمة المعنية في هذا الدعاء، وإن رسولنا الخاتم محمدًا عليه الصلاة والسلام هو والدنا الروحي والثقافي وصاحب أطهر أنفاس حنت على العالم. وألهمته رشده.. أفلا نرتبط بعدئذ بهذا البيت، ونزوره ما وجدن إلى ذلك سبيلا؟ ما أعظم الذكريات التي تحف به! وما أوفى الوفود التي طوت الأبعاد لرؤيته، والتزود من خيره، وبره..!!

ونحن نحيي البيت العتيق بالطواف حوله والصلاة إليه. نجعل الحجر الأسود إلى يسارنا ثم نلف سبع مرات، أو سبعة أشواط. وماذا نقول خلال ذلك؟ نقول: سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر وندعو بها نشاء من حوائج الدنيا والآخرة: ﴿**ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم**..﴾[3]. والبشر فقراء إلى الله، وهو صاحب الخزائن التي لا تنفد..

كلهم سائل وأنت مجيب   تلك نعماك ما لها من نفاد!

وبعض الحمقى من المبشرين يظن للمسلمين علاقات مادية بالكعبة وبالحجر الأسود خاصة. وهذا ظن ما يبوء إلا بالسخرية والضحك، فإن التوحيد الذي يعمر قلوب المسلمين طراز من اليقين الحر لا نظير له في الدنيا، والهتاف الذي يسود مواكب الحجيج منذ تحركها النبيل هو: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك..». وهو هتاف يزداد هديره كلما علوا ربوة، أو هبطوا واديًا، أو لاقوا جمعًا. وكلما أظلتهم هدأة الليل، أو سكينة السحر.. ويشعر الملبي أن الكون كله يتجاوب معه مصداق ما ورد في الحديث: «إذا لبى الحاج لبى ما عن يمينه ويساره من

---

(١) سورة البقرة: ١٥٠.
(٢) سورة البقرة: ١٢٨ ـ ١٢٩.
(٣) سورة ابقرة: ١٩٨.

شجر، وحجر، ومدر حتى منقطع الأرض من ها هنا، وها هنا». . ولا عجب أن يتجانس الكون المسبح بحمد اللّه مع إنسان انخلع عن نفسه، وانطلق فى سفر صالح يبغى مرضاة اللّه. وكان النبى صلى اللّه عليه وسلم لا يريد سفرًا إلا قال حين ينهض من جلوسه: «اللهم زودنى التقوى واغفر لى ذنبى، ووجهنى للخير أينما توجهت. اللهم أنت الصاحب فى السفر، والخليفة فى الأهل والمال والولد».

إن الحاج إنسان متبتل إلى اللّه، متلهف على رضاه، متطلع إلى مثوبته متخوف من عقوبته، يتحرك كل شىء فى بدنه بمشاعر الشوق والرغبة والحب ولا أعرف تجمعًا آهلا لرحمة اللّه ومغفرته كهذا التجمع الكريم.

والسعى بين الصفا والمروة يقع عادة بعد الطواف، وشعائر السعى تجديد وتخليد لمشاعر التوكل على اللّه كما استقرت فى قلب «هاجر» أم إسماعيل، وكما استقرت فى قلب رجلها إبراهيم الخليل.

إن التوكل شعور نفيس غريب، وهو أغلى من أن يخامر أى قلب، إنه ما يستطيعه إلا امرؤ وثيق العلاقة باللّه حساس بالاستناد إليه والاستمداد منه. وعندما ينقطع عون البشر، وتتلاشى الأسباب المرجوة وتغزو الوحشة أقطار النفس فهلا يردها إلا هذا الأمل الباقى فى جنب اللّه، عندئذ ينهض التوكل برد الوساوس وتسكين الهواجس. إننى بعين الخيال أتبع هاجر وهى ترمق وليدها الظامئ، ثم تجرى بخطوات والهة هنا وهناك ترقب الغوث وتنتظر النجدة. . إن ظنها باللّه حسن، وقد قالت لإبراهيم عندما تركها فى هذا الوادى المجدب الصامت: آللّه أمرك بهذا؟ قال: نعم. . ! قالت فى رسوخ: إذن لا يضيعنا. . !! وها هى ذى تتعرض للمحنة، وتنتظر تدخل السماء. . وتدخلت السماء، وتفجرت زمزم، وغنى الوادى بعد وحشة وصار الرضيع المحرج أمة كبيرة العدد عظيمة الغناء، ومن نسله صاحب الرسالة العظمى، ومن شعائر اللّه هذا التحرك بين الصفا والمروة تقليدًا لأم إسماعيل، وهى ترمق الغيب بأمل لا يخيب. .

ما أحوج أصحاب المثل إلى عاطفة التوكل، إنها وحدها تكثرهم من قلة، وتعزهم من ذلة، وتجعل من تعلقهم باللّه حقيقة محترمة. ولعل ذلك بعض ما تعنيه الآية: ﴿**إن الصفا والمروة من شعائر اللّه فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرًا فإن اللّه شاكر عليم**﴾[1].

---

(1) سورة البقرة: ١٥٨.

قال المؤرخون: إن إبراهيم لما ترك هاجر وابنه يواجهان المصير المجهول في هذه البقعة المنقطعة عرض له الشيطان وهو ينقل قدميه في منى ـ بعدما أنفذ أمر الله ـ يقول له: أيترك أحد أسرته تموت جوعاً وعطشاً على هذا النحو؟ عد فاستنقذ أهلك!! ولكن ابراهيم حذف الشيطان بالحجارة ومضى في طريقه يناجي ربه: ﴿**ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون**﴾[1].

واستجاب الله للدعاء الخالص، وسقط كيد الشيطان فلم ينل شيئاً من قلب الإنسان المؤمن الواثق، وكانت سنة رمي الجمرات ليعلم من يجهل أن وعد الله حق، وأن وسوسة الشيطان هراء، وما تعمل هذه الوسوسة عملها إلا مع أصحاب القلوب الفارغة: ﴿**إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون* إنما سلطانه على الذين يتولّونه والذين هم به مشركون**﴾[2].

ومما يلفت النظر أن القرآن الكريم لما أراد أن يذكر رمي الجمرات بمنى لم يستعمل هذا العنوان المألوف، بل عبر عنه بذكر الله في أيام معدودات قال تعالى: ﴿**واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى**﴾[3]. كأن المقصود من هذا الموضوع هو الذكر الجهير العالي لرب العالمين، وما رمي الجمرات إلا رمز..

والحق أن الحج كله هو هذا الهدير الموصول بذكر الله من أمواج بشرية متصلة، لا شغل لها إلا الجؤار بالتلبية والهتاف بالتسبيح. ومن المؤسف أن رمي الجمرات تحول إلى عمل معنت تزهق في زحامه أرواح ولا يستطيعه إلا أصحاب الجلادة والمغامرة! لماذا؟ لأن الرأي الفقهي السائد أن الرمي لا يصح إلا بين زوال الشمس وغروبها.. فكانت الجماهير المتدفقة في ذلك الوقت العصيب تواجه المهالك، وقد رفضت شخصياً هذا الرأي لأني لم أعرف له سنداً من كتاب أو سنة، ورميت في أوقات خفيفة الحر والزحام!!

ومما يسر الآن أن الحكومة السعودية جعلت للرمي ميدان أعلى وآخر تحته وضبطت طريقي الذهاب والعودة، وفسحت المجال للقول بأن الرمي يصح خلال الأيام المعهودة

---

(١) سورة إبراهيم: ٣٧ (٢) سورة النحل: ٩٩ـ١٠٠.
(٣) سورة البقرة: ٢٠٣.

ليلا ونهارًا . . فاستنقذت بذلك أرواحًا وأعانت على طاعة . . إن هناك مسلمين يظنون الحج جملة مشكلات معقدة ، وهؤلاء عسروا اليسير واختلقوا بدعا لا أصل لها . . حتى ظن البعض أن لكل شوط فى الطواف دعاء خاصا ، وأن لكل شوط فى المسعى دعاء خاصا ، وألفت كتب لهذه الأدعية ما أنزل الله بها من سلطان .

وهناك أشخاص معلولو الفكر يظنون السعى على الأرض أولى من السعى فى الدور الأعلى الذى أقامته الحكومة تخفيفا لأهوال الزحام ، وكذلك فى رمى الجمرات يظنون أن الرمى على الارض أهم من الرمى فى الدور الأعلى ! ! وما يدرى هؤلاء أن النبى صلى الله عليه وسلم طاف حول البيت فوق ناقته يشير إلى الحجر الأسود بعصاه من بعيد . . إن الحج عبادة رقيقة محبوبة أساسها الوقوف بعرفة والطواف حول البيت وبعض شعائر أخرى يمكن استيعابها بيسر دون قلق أو حرج . . والدين كله يقوم على صدق الإخلاص ونضج الأخلاق وحسن العلاقة بالله وبعباده ، والقرآن الكريم يقول فى الحج : ﴿**الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب**﴾(١) . وهذه الرحلة بين الأماكن المقدسة تصقل الطبع وتزكى القلب ، وتنمى مشاعر الحب لله ولرسوله وجماعة المسلمين ، فلا عجب إذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أثر هذه الفريضة الجليلة : «من حج هذا البيت فلم يرفث ، ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» .

ولقد ثبت أن مكة مركز العمران فى هذا العالم واستطاع الدكتور «حسين كمال الدين» أستاذ الهندسة بجامعة الرياض أن يثبت بحسابات رياضية عالية أن مكة تتوسط القارات المأهولة ، وأن وضعها الذى قرره العلم الحديث تفسير حقيقى لقوله تعالى : ﴿**وكذلك أوحينا إليك قرآنًا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه** . .﴾(٢) .

فحول الكعبة المشرفة دوائر متتابعة الرحابة من الركع السجود ، يتلوها غيرها من المسلمين الذين اتخذوا المسجد الحرام قبلتهم ، وعلى امتداد خطوط الطول والعرض تسمع كلمات الأذان وتنحنى الأصلاب والجباة ركوعًا وسجودًا لأهل الحمد والمجد ، رب المشارق والمغارب ، رب العالمين .

---

(١) سورة البقرة : ١٩٧ .
(٢) سورة الشورى : ٧ .

فى موسم الحج تلتقى مكة بالوفود المقبلة من كل فج عميق، تلتقى بأفراد الإنسانية الموحدة المهتدية المحبة للّه وللمسجد الأول أبى المساجد فى القارات كلها تتصافح الوجوه وتتعارف النفوس على تلبية النداء الصادر بحج البيت، النداء الذى صدر من قديم، وزاده الإسلام قوة وحدة.

﴿وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق* ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم اللّه فى أيام معلومات..﴾[1].

ووفود اللّه القادمة إلى مكة تصنع مجتمعًا شغله الشاغل ذكر اللّه، والهتاف باسمه المبارك.

فى الأحياء التجارية يكون تبادل السلع والأثمان هو الحركة السائدة.. فى الدواوين الحكومية يكون تنقيل الأوراق من هنا وهناك مظهر الحياة البارز..

لكن الحجاج والعمار يقيمون سوقًا للصالحات لها جؤار هائل بالتلبية والتكبير كأن الأرض تحولت بهم إلى أفق يعج بالملائكة المتعبدين.

قال النووى يرسم عمل الحجيج: «ويستحب الإكثار من التلبية يستحب ذلك فى كل حال، قائمًا وقاعدًا، ماشيًا وراكبًا، مضجعًا ونازلا وسائرًا، محدثًا وجنبًا وحائضًا. وعند تجدد الأحوال وتغايرها زمانًا ومكانًا، كإقبال الليل والنهار، وعند الأسحار، واجتماع الرفاق. وعند القيام والقعود والصعود والهبوط والركوب والنزول، وفى أدبار الصلوات، وفى جميع المساجد».

ثم قال النووى: «وإذا رأى شيئا أعجبه قال: لبيك، إن العيش عيش الآخرة.. اقتداء برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم».

ولبواعث هذا الإعجاب قصة، فقد روى الشافعى عن مجاهد قال: كان النبى عليه الصلاة والسلام يظهر التلبية: لبيك اللهم لبيك.. إلى آخرها حتى إذا كان ذات يوم والناس يدفعون عنه، فكأنه أعجبه ما هو فيه فقال: «لبيك إن العيش عيش الآخرة»!!

قال ابن جريج: حسبت أن ذلك يوم عرفة!!

---

(١) سورة الحج: ٢٧ ـ ٢٨.

من حق عشرات الألوف من الحجاج أن يزدحموا حـول نبيهم، وهو يجأر بذكر اللّه، إنه صانع هذه السيرة وقائدها.

لكن محمدًا الضخم لا يزدهيه أن تزدحم حـوله الأتباع، إن فؤاده المعلق باللّه، المرتقب للقائه، جعله يذكر الآخرة، ويؤمل فى غدها القريب . .

ولقد سمـع، وهو على الصفا يقول: «اللّـه أكبر اللّه أكبر. اللّه أكبر وللّه الحمـد. اللّه أكبر على ما هدانا. والحمد للّه على ما أولانا».

«لا إله إلا اللّه وحـده لا شريك له، له الملـك وله الحمد. يحيى ويميـت، بيده الخير، وهو على كل شىء قدير».

«لا إله إلا اللّه، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده».

«لا إله إلا اللّه، ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين، ولو كره الكافرون».

اللهم إنك قلت: ﴿**ادعونى أستجب لكم**﴾[1]. وإنك لا تخلف الميعاد وإنـى أسألك كما هديتنى للإسلام ألاَّ تنزعه منى حتى تتوفانى وأنا مسلم . . !!

سبحان اللّه، أمل الرسل الكرام من قبل . . إن يـوسف الصـديق ـ بعدما أوتى الملك ـ دعا اللّه أن يميته على الحق: ﴿. . . **فاطر السمـوات والأرض أنت وليى فى الدنيـا والآخرة توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين**﴾[2].

كذلـك يدعو محمد ربـه، وهو فى حجة الـوداع، بعدما نكس الأوثـان، ومحا الجاهلية وأقام دولة التـوحيد! والجميل أنه بعد خمس سنين مـن غزو الأحزاب للمدينـة يذكر النصر الذى منحه القدر، والذى جاء نجدة مشرقة بعد كفاح معنت رهيب.

إنه اللّه أنجـز وعده وهزم الأحزاب وحده، ومـا كان غيره يفل حدهـم ويمزق شملهم ويبطل كيدهم. . إنه اللّه أهل الحمد والثناء، وأهل التقوى وأهل المغفرة. . !!

هل استراح الإيمان وحملتـه بعد هذه المعارك المظفـرة؟ كلا . . إن القوى الكافـرة ستظل تبغض الحق ورجاله، وتقلب لهم الأمور، بيـد أن رجالات الإسلام سيمضون فى الطريق إلى نهايته ولو كره الكافرون . .

---

(١) سورة غافر: ٦٠.

(٢) سورة يوسف: ١٠١.

تتبعت كلمات النبى صلى اللّـه عليه وسلم فى مناسك الحج. ظـانا أنى سأطـالع أدعية مستفيضة ففوجئت بوجازة الكلمات التى قالها!!

لكن المسلمين أحدثـوا لكل شوط فى الطواف أو السعـى وردا يتلى! وأحدثوا ليوم عـرفة أدعية مسهبـة. والعاطفـة وراء هذا الإلحاح مقدورة، والمقبـل على الله لا يستغـرب منه أن يستعين بكل كلمـة تترجم عن شـوقه وأمله. وأن يتشبث بكـل حرف يظنه مفتـاحا خزائن الرحمة العليا..

إن أى مسلم ينشد لنفسه وأهله الرضا والقرار، فهو يقول مع موسى الكليم: ﴿**رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير**..﴾[1].

والدعاء الذى لم يسأم النبى تكراره فى الطواف والسعى: ﴿**ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار**﴾[2].

والنشيد الذى يتردد بين قمم الجبال وبطون الأودية هو: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شىء قدير».. الألوف المؤلفة تصرخ به. وتتلاقى عليه..

---

(١) سورة القصص: ٢٤.

(٢) سورة البقرة: ٢٠١.

ذكــــر وتذكيــــر

فى وهج الحر قـد يأوى المرء إلى حجرة «مكيفـة» الهواء، يبقى داخلها مـراح الأعصاب! وربما كان حظه أتم فذهب إلى مصيف عليل الريح لطيف الأنفاس، فهو ـ حيثما اتجه ـ فى ربيع دائم!!

إن علاقة المؤمنين مع ربهم، نور السموات والأرض، تتراوح بين هذه المنازل، فقد يعيش العابد فى صومعـة معزولة عن ضجيج المجتمعات وآثامها، راكنًـا إلى الحميد المجيد الفعال لما يريد، فهو سعيد بربه ترنو إليه بصيرتـه، وتتحدد عنده وجهته، ويظل كذلك بعيدًا عن لفح الحياة الضالة، والعوج الشائع . . .

وربما رزق بيئـة صالحة، انهزم فيهـا الشيطان، واستقـر فى جنباتها الحق، وتجاوبـت فى أرجائهـا أصداء التسبيـح والتحميد، فهـو يمشى على نور مـن يقينه، وأنـوار من إخـوانه المتعاونين معه على البر والتقوى . .

كان الصحابه رضـوان اللّه عليهم يستمتعون فى جوار النبى صلى اللّه عليـه وسلم بربيع دائم من الأنس باللّه، والهتاف باسمه.

وكان النبـى الجليل ـ كما وصفه ربـه ـ سراجًا منيرًا يـرمى بأشـعته فى كل أفــق، ويجمع الناس على وحدانيـة جياشة المشاعـر والمسالك، تتصدر كـونًا كبيرًا، كل شىء فيـه يسبح بحمد ربه!!

شعرت بأبعاد العبودية التى قامت عليها سيرة النبى الخاتم فى مناح كثيرة من حياته صلى اللّه عليه وسلم، ولكنى تـريثت طويلا عند طرفة عميقة الدلالـة، رواها ابن عباس قال: «جاء رجل إلى النبى صلى اللّـه عليه وسلم فقال: رأيتنى الليلة وأنا نـائم كأنى أصلى خلف شجرة، فسجدت فسجدت الشجرة لسجودى! فسمعتها تقول: اللهم اكتب لى بها أجرا،

وحط عنى بها وزرًا، واجعلها لى عندك ذخرًا، وتقبلها منى كما تقبلتها من عبدك داود عليه الصلاة والسلام!!».

قال ابن عباس: سمعت رسول اللّه قرأ سجدة، ثم سجد، فقال مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة!!

هذه الطرفة، كما قلت، عميقة الدلالة فهى تدل على أن صاحب الرؤيا أحسن الاستفادة من تعاليم الإسلام حتى نضح ذلك على سريرته. وهو نائم.

وهى تدل كذلك على أن فؤاد الرسول المربى موار بعاطفة من حب اللّه يهيجها أى شىء، فقد التقط الدعوات المنسوبة إلى الشجرة، وأخذ يرددها هو فى سجود خاشع لرب العالمين..

وصلة الأنبياء باللّه تتحرك للملابسات المثيرة! إن زكريا لما رأى القدرة العليا تتجرد من قانون السببية، وتسوق الفضل الإلهى إلى مريم بغير حساب، انعطف إلى ربه يجأر: ﴿**هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء**﴾[1].

ومحمد صلى اللّه عليه وسلم تربطه بنور السموات والأرض روابط فوق الحصر.

وقد كان جهده أن يجعل البيئة كلها من حوله عابدة ساجدة ذاكرة شاكرة. روى النسائى عن يعقوب بن عاصم عن رجلين من أصحاب رسول اللّه أنهما سمعا النبى صلى اللّه عليه وسلم يقول: «ما قال عبد قط: لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير، مخلصًا بها روحه، مصدقًا بها قلبه، ناطقًا بها لسانه، إلا فتق اللّه له السماء فتقا، حتى ينظر إلى قائلها من الأرض! وحق لعبد نظر اللّه إليه أن يعطيه سؤله».

لا أحب أن أفسد هذا المعنى السمح بتكلف تأويل! كل ما يفيده الحديث المروى أن القلب الموحد قد تعرض له فورات إخلاص وصدق، تجعل كلمة التوحيد تنطلق من فمه، فما يقفها دون عرش الرحمن شىء! وما يشقى صاحبها بعدها أبدا..

والتوحيد المذكور فى هذه السنن يقوم على فقه لأسماء اللّه الحسنى، واصطباغ بمعانيها، والحامد للّه، أو المادح له أهل لأن يعود قرير العين..

---

(١) سورة آل عمران: ٣٨.

ويحضرنى قول لأحد العارفين وقد سئل : ما أفضل الدعاء يوم عرفة؟ أجاب : «لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له . له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير» .

قيل له : هذا ثناء . لا دعاء . . ! ! قال : أما تعرف قول الشاعر :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى ... حياؤك إن شيمتك الحياء !

إذا أثنى عليك المرء يومًا ... كفاه من تعرضه الثناء !

روى الطبرانى أنه كان مما دعا به النبى صلى اللّه عليه وسلم عشية عرفة : «اللهم إنك ترى مكانى ، وتسمع كلامى ، وتعلم سرى ، وعلانيتى ، لا يخفى عليك شىء من أمرى . . .

أنا البائس الفقير . المستغيث المستجير ، الوجل المشفق ، المقر المعترف بذنبه ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير . . من خضعت لك رقبته ، وذل جسده ورغم أنفه . . اللهم لا تجعلنى بدعائك شقيا ، وكن بى رءوفًا رحيما يا خير المسئولين ويا خير المعطين» .

وارتباط الثناء بالدعاء ملحوظ فى قول النبى صلى اللّه عليه وسلم : «أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، سبحانك لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك» . وكذلك فى قوله عليه الصلاة والسلام : «أفضل الذكر لا إله إلا اللّه ، وأفضل الدعاء الحمد للّه» .

وننبه إلى أن حركة الشفتين ـ والقلب وسنان ـ لا تعنى شيئًا . أما عندما يكون النطق ترجمة لشوق هائج ، وفؤاد مفعم ، فإن النعم على كثرتها تتضاغر أمام حمد مرسلها ، والإحساس بمنته !

عن أنس قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «ما أنعم اللّه على عبد نعمة فقال : الحمد للّه إلا كان الذى أعطى أفضل مما أخذ» . وفى رواية : «لو أن الدنيا بحذافيرها فى يد رجل من أمتى ثم قال : الحمد للّه . لكان الحمد للّه أفضل من ذلك» .

قال القرطبى وغيره : أى لكان إلهامه الحمد أكثر نعمة عليه من نعم الدنيا ، فثواب الحمد لا يفنى . ونعيم الدنيا لا يبقى ! وهذا تفسير حسن ، والتفسير القريب أن حمد اللّه ـ تبارك اسمه ـ كاف فى تقدير النعمة وتقييدها مهما كانت كبيرة . .

على إن إحسان الحمد والمدح لا يقدر عليه كل إنسان ، كيف تمدح من تجهل ؟ كيف

تحمد من لا تعامل؟ الأمر يحتاج كما أشرنا إلى فقه فى أسماء اللّه الحسنى يكشف عظمة الذات والصفات وذلك يقوم على جملة عناصر:

منها تدبر القرآن الكريم حين يتحدث المولى الجليل عن نفسه ويبصر بآياته. إن الرجل العادى يستقبل النهار، ويستدبر الليل دون وعى، وهنا يستثير القرآن الكريم وعيه. من فعل ذلك؟ اللّه: ﴿**فالق الإصباح وجعل الليل سكنًا والشمس والقمر حسبانًا ذلك تقدير العزيز العليم**﴾[1]!

والمرء يرى ببلاهة مساحات هائلة من الحقول والحدائق ينشق فيها الطين الأصم عن أنواع كثيرة من الحبوب والفواكه، من صاغها على هذا النحو المعجب وحشاها بالسكر والنشا وشتى الطعوم والروائح؟ ﴿**وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خَضِرًا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قِنْوَان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه**. . ﴾[2].

إن التأمل فى الكون باب واسع إلى معرفة جملة من أسماء اللّه الحسنى. ودلالة هذه الأسماء على الله تبارك وتعالى. .

ومع التأمل فى الكون يجىء التأمل فى أحوال الأفراد والأمم، ودراسة التاريخ قديمه وحديثه، وكيف يعطى ربنا ويمنع، وكيف يضحك ويبكى!

إن المسافة لا تطول كثيرًا بين قول فرعون: ﴿**ما علمت لكم من إله غيرى**﴾[3]. وبين قوله حين شدته موجة غضب إلى قاع اليم: ﴿**آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل**﴾[4].

ولكننا ـ معشر البشر ـ صرعى الساعة الحاضرة، وما نحسن دراسة سنن اللّه فى الآحاد والجماعات.

وكم من أمم ركبت رأسها ثم كبت بعد أيام أو أعوام: ﴿**ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور**﴾[5].

وقد حوى القرآن صنوف العبر من هذا القبيل حتى يعرف الناس ربهم ويحسنوا مراقبته وتقواه، وتنغرس فى خلالهم مشاعر الرغبة والرهبة على نحو ما قال النبى صلى اللّه عليه

---

(١) سورة الأنعام: ٩٦. (٢) سورة الأنعام: ٩٩.
(٣) سورة القصص: ٣٨. (٤) سورة يونس: ٩٠. (٥) سورة سبأ: ١٧.

وسلم : «لو يعلم المؤمن ما عند اللّه من العقوبة ما طمع فى جنته! ولو يعلم الكافر ما عند اللّه من الرحمة ما قنط من رحمته أحد»!!

والمعرفة النظرية بالكون وعلومه والناس وتواريخهم يجب أن تتحول إلى إحساس وعمل، وإلا فهى كالطاقة الكهربائية المحبوسة وراء مواد عازلة ما تنير مصباحا، ولا تحرك آلة . .

وهنا أقول : إن أعظم إنسان عرف ربه، وتحولت كل ذرة فى كيانه إلى قوة ساجدة هو محمد بن عبداللّه الذى كان القرآن له خلقا. فهو يستبطن معانيه ويدور مع توجيهه، إنه مشدود أبدا إلى آيات اللّه فى الوحى الهادى والملكوت الواسع، وهو يجتذب من اتصل به إلى هذا المستوى الطهور العالى، فيجعله عارفا باللّه، قواما بأمره.

لذلك رأينا صحابته أصدق الناس يقينا، وأصفاهم فطرة . .

ولست أصدق أن أحدا يجهل محمدا، ثم يتخذ إلى اللّه طريقا موصلة!!

أبرز ما فى سيرة هذا النبى أن حبه للّه، وإعظامه للّه، وتفانيه فى اللّه ينتقل من نفسه إلى من حوله، فكأنهم فى سبق إلى حمد اللّه والثناء عليه . . ولننظر إلى هذه الأحاديث .

روى أحمد عن عبداللّه بن عمر أن عبدا من عباد اللّه قال : «يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك، ولعظيم سلطانك» .

فعضلت بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها، فصعدا إلى السماء فقالا: يا ربنا إن عبدك قد قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها؟! قال اللّه ـ وهو أعلم بما قال عبده ـ ماذا قال عبدى؟ قالا: يا رب إنه قد قال: يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك، وعظيم سلطانك .

«فقال اللّه لهما اكتباها كما قال عبدى حتى يلقانى فأجزيه بها . . »

والظاهر أن هذا العابد كان فى سياحة روحية طوفت به فى آفاق لا يعلمها إلا اللّه، استجمع فيها من الآيات، والعبر ما شحن قلبه، وغمر حسه، وغلب على ظاهره وباطنه، فلم ير إلا أن يحيى ربه بهاتين الجملتين . .

ورأى الملكان أن ما قال فوق ما لديهما من ضوابط الأجور، ففعلا ما فعلا.

وعن أبى أيوب قال : قال رجل عند رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : الحمد للّه حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه : فقال رسول اللّه : «من صاحب الكلمة؟ فسكت الرجل، وظن أنه قد هجم من رسول اللّه على شىء يكرهه! فقال رسول اللّه «من هو؟ فإنه لم يقل إلا صوابا». فقال الرجل : أنا قلتها يا رسول اللّه أرجو بها الخير! فقال رسول اللّه صلى اللّه

عليه وسلم : «والذى نفسى بيده لقد رأيت ثلاثة عشر ملكًا يبتدرون كلمتك . أيهم يرفعها إلى الله تبارك وتعالى» .

وعن أنس بن مالك قال : قال أبى بن كعب : لأدخلن المسجد فلأصلين ، ولأحمدن الله بمحامد لم يحمده بها أحد ! !

فلما صلى وجلس ليحمد الله ، ويثنى عليه فإذا هو بصوت عال من خلفه يقول : اللهم لك الحمد كله ، ولك الملك كله ، وبيدك الخير كله ، وإليك يرجع الأمر كله علانيته وسره ، لك الحمد إنك على كل شىء قدير . اغفر لى ما مضى من ذنوبى . واعصمنى فيما بقى من عمرى . وارزقنى أعمالا زاكية ترضى بها عنى . وتب على .

فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقص عليه . فقال : «ذاك جبرائيل عليه السلام» .

وليس غريبًا أن يهبط الملك بهذه الدعوات ليستوعبها قلب يشرئب إلى مدح الله على نحو لم يسبق إليه ، لقد كانت الملائكة تتنزل عندما يقرأ بعض الصحابة القرآن الكريم .

الشىء الذى يستدعى التساؤل : من الذى دفع هؤلاء الأصحاب إلى الإيغال فى طريق التوحيد والتقديس حتى تفجرت ينابيع الحكمة من ألسنتهم ونطقوا بكلمات زاكيات فى تمجيد الله وجلاله؟ إنه النبى العربى المحمد . من غيره وراء هذه العواطف المشبوبة؟ إنه لإنسان العباد السجاد الذكار الشكر الذى ألهم التسبيح والتحميد مع كل زفير وشهيق . . لقد حول الأرض إلى حلبة تنافس السماء فى الذكر ، والشكر .

عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن مما تذكرون من إجلال الله من التسبيح والتحميد والتهليل ، ينعطفن حول العرش لهن دوى كدوى النحل ، تذكر بصاحبها ! أما يحب أحدكم أن يكون له ، أو لا يزال له ، ما يذكر به؟» .

وعن عبدالله بن مسعود : إذا حدثتكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك فى كتاب الله . إن العبد إذا قال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله أكبر ، وتبارك الله قبض عليهن ملك ، فضمهن تحت جناحه ، وصعد بهن لا يمر على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن . حتى يُحيا بهن وجه الرحمن ، ثم تلا عبدالله : ﴿**إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه**﴾[1] .

---

(١) سورة فاطر : ١٠ .

قالوا: فاقد الشيء لا يعطيه، ومن تمام ذلك أن يقال: ومعطى الكثير لابد أن يكون لديه كثير! إن الأنهار الجارية تجيء عقب مطر هتان يسح آناء الليل. وأطراف الأنهار.

والحق أن السلف الصالحين الذين تربوا بين يدى محمد، وكل جيل من الأبرار تبعهم بإحسان إلى يومنا هذا، ثم إلى آخر الدهر، إن هؤلاء، وأولئك بشخصية محمد تأثروا، وبروحانيته استناروا، ومن رسوخ يقينه استمدوا.

إن صحبته فى حياته، وصحبة مواريثه العقلية والخلقية بعد مماته تفعلان الأعاجيب، وبقدر الاقتباس من مولد الطاقة تكون القوى الروحية والفقهية، والأساس كله عظمة المصدر.

إن بيننا وبين الشمس مائة وخمسين مليون كيلو متر، من ناحية البعد.

ولا ندرى من ناحية الزمان متى بدأ إشعاعها؟ لكن بعد الزمان والمكان لم يغير من قدرة الشمس على الإضاءة والإنضاج واستبقاء الحياة على كوكبنا.

كذلك أثر محمد صلى اللّه عليه وسلم فى المستقدمين والمستأخرين، أثر عبادته وقيادته، أثر سيرته ودعوته، وإن طال الزمان، واتسع المكان..!

ومنهج الذكر والتذكير فى رسالة خاتم المرسلين يحتاج إلى شرح.. إن الصدق العقلى أسسه الأول، والكلمات التى أهاب الإسلام بأتباعه أن يرددوها هى قضايا علمية صحيحة.

فكلمة: لا إله إلا اللّه، أو سبحان اللّه، أو تعالى اللّه، تعنى تقرير الصواب وتوكيده فى أخطر أصول الاعتقاد.. وتدبر قوله جل شأنه: ﴿**ما اتخذ اللّه من ولد وما كان معه من إله إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان اللّه عما يصفون* عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون**﴾[1].

ليس للّه أم، ولا أب، ولا ابن ولا ابنة. إنه واحد، وما عداه عبد يخضع لأمره، وإذا شاء سحب منه نعمة الوجود، فباد، وتلاشى.

نعم ما عدا اللّه فهو جزء من الكون الذى يبقى لأن اللّه يمده بالوجود بعدما أوجده بدءًا، كما يخمد المصباح إذا قطعت عنه التيار.

نعم لا شريك للّه، ولا حول ولا قوة إلا به، له الفضل، والملك والحمد.

---

(١) سورة المؤمنون: ٩١ ـ ٩٢.

ومحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ أجهر البشر صوتا بهذه الحقيقة. وأغير الناس عليها، وقد زاد بصوته، ويده خرافات كثيفة عكرت صفوها واستنقذ جماهير هائلة كانت جائرة عنها . .

ولا تعرف فى سيرة الأنبياء، وقادة الإنسانية الكبار من قام بمثل جهده ولا من نجح مثل نجاحه. ولا أحسب الأبالسة ومردة الإنس والجن غاظهم أحد ولا اعترض آثامهم غاضب لله، مثل ما فعل محمد القوى بربه، المجاهد فى سبيله. فقد أنصف الحق من الباطل، والرشد من الغى.

وبنى ـ وهو قوام النيل ـ جيوشا يشق تكبيرها عنان السماء، تصرخ بأن الله واحد، وأن الخلق كلهم ـ وأولهم محمد ـ عبيد لمن فاضت عليهم بركته، ونسقت معايشهم حكمته . . !!

إذا كان الدين قلبا طيبا، فهو قبل ذلك عقل سليم، وفكر حسن، وعلم صحيح: ﴿**شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائمًا بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم**﴾(1).

ونحن لا نسأم من توكيد هذا القول لأن الدنيا لا تزال تسمع من يقول: إن لله أما، وإن، وإن الذات المقدسة ثالوث ذو رءوس متميزة، هى أب، وابن، وروح قدس . . وهو كلام صفر من أية حقيقة، مصدره إشعة من بعض العقول العليلة، و خيالات المغالبة، الجانحة للأوهام . . كلام ما قاله نبى سبق، ولا أقره عقل محترم!!

وأهل الكتاب ــ أعنى النصارى خاصة ـ يكرهون كلمة التوحيد، وقد حاربوها ولا يزالون، وسوف نبقى عليها، ونلقى ربنا بها . . روى أحمد عن شداد بن أوس ـ وعبادة بن الصامت يصدقه ــ قال: كنا عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال: هل فيكم غريب ؟ـ يعنى من أهل الكتاب ــ قلنا: لا يا رسول الله. فأمر بغلق الباب، وقال: ارفعوا أيديكم وقولوا: لا إله إلا الله ـ كأنه يبايعهم ـ فرفعنا أيدينا ساعة ـ فترة ـ ثم قال: «الحمد لله اللهم إنك بعثتنى بهذه الكلمة، وأمرتنى بها، ووعدتنى عليها الجنة، وأنت لا تخلف الميعاد، ثم قال: أبشروا فإن الله قد غفر لكم» . . .

وسناء الفكر، مهما بلغ، لا يغنى عن زكاة القلب، وصفاء الروح، لقد كان إبليس يعلم

---

(1) سورة آل عمران، ١٨.

أن اللّه واحد، ولكنه أبى أن يلتزم بمبدأ السمع والطاعة، أبى أن يتواضع، وينكر ذاته، أبى أن يكبت نزوات الحقد والاستطالة على الآخرين، أبى أن يكون عبدا حقا للّه.

هاهنا الأخلاقي الصخم الذى بناه صاحب الرسالة الخاتمة إنما ينهض على قلب سليم، ترتبط باللّه رغبته ورهبته. ولذلك قال: «التقوى ها هنا التقوى ها هنا، التقوى ه هنا». ويشير إلى قلبه.

والقرآن بعد ما يشرح الحقيقة العلمية يشرح الحقيقة الروحية، أو الخلقية وما ينبني عليهما من سلوك. قال تعالى: ﴿**إن ربكم اللّه الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يُغشى الليل النهار يطلبه حثيثًا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك اللّه رب العالمين**﴾[1].

ماذا بعد هذه الحقائق العلمية عن رب الزمان والمكان: ﴿**ادعوا ربكم تضرعا وخُفية إنه لا يحب المعتدين**﴾[2]. لابد امام اللّه من الضراعة، والدعاء المصحوب بالفقر، المقرون بالخفوت ـ لأنه أدل على الذات وما فيها ـ ومن تجاوز هذا المستوى فهو يعدو حدوده.

ثم ماذا؟ إن اللّه قد نظم للأرض ما تصلح به فلا يجوز أن نثير الفوضى فى وضع، وعلينا أن نبلغ بالأعمال حد الإتقان، وليبق نظرنا إلى السماء دائما نرجو الخير، ونحذر الشرور: ﴿**ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفًا وطمعًا إن رحمة اللّه قريب من المحسنين**﴾[3]. وفى مكان آخر من السورة نفسها يقول تبارك اسمه: ﴿**واذكر ربك فى نفسك تضرعًا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدوّ والآصال ولا تكن من الغافلين**﴾[4].

والذكر المقصود حركة قلب، لا حركة لسان كما يتوهم الجهال، حركة قلب يوجه صاحبه هنا أو هنالك وينشطه أو يكبو به، عن أم أنس رضى اللّه عنها قالت: يا رسول اللّه أوصنى! قال: «اهجرى المعاصى فإنها أفضل الهجرة، وحافظى على الفرائض فإنها أفضل الجهاد، وأكثرى من ذكر اللّه فإنك لا تأتين اللّه بشىء أفضل من ذكره»!!

الذكر الذى جاءت الوصايا به شىء آخر غير ما يسبق إلى أذهان الدهماء.

إنه مصدر السكينة والاستقرار تجاه صروف الدنيا ومتاعبها. ففى حضارتنا المعاصرة كثر المثقفون، وشاعت المعارف الذكية، ومع ذلك فإن اضطراب الأعصاب، وانتشار الكآبة داء عام..

---

(١) سورة الأعراف: ٥٤.

(٢) سورة الأعراف: ٥٥.

(٣) سورة الأعراف: ٥٦.

(٤) سورة الأعراف: ٢٠٥.

ما السبب؟ خراب القلوب من الله! إنها لا تذكره كي تتعلق به وتركن إليه. وكيف تذكر من تجهل؟ إن الحضارة الحديثة مقطوعة العلاقة بالله. والإنسان مهما قوى ضعيف، ومهما علم قاصر، وحاجته إلى ربه حاجة الطفل إلى أبيه يحنو عليه، ويحميه.

وذكر الله أمام الأزمات والنوازل عزاء ورجاء. قال تعالى: ﴿**الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب* الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب**﴾[1].

وقد كان محمد صلى الله عليه وسلم أوثق الناس بالله، وأشدهم تعلقا به. منذ بدأ الدعوة قيل له: ﴿**واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا* رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا**﴾[2]. من يومها توكل على الله وواجه قوات الشرك والكفر، فما هان. ولا استكان.

وقد علم محمد الناس أن يثقوا من حنو الله عليهم، ورحمته بهم، وأفهمهم أنه أحنى عليهم. وأرحم بهم من الأم برضيعها، فلماذا ينأون عنه، ويفرون منه؟.

وذكر الله هو وحده أساس الضمير الكاره للآثام. العاصم من الانحراف!

أعرف أن هناك أناسًا لهم حناجر صياحة باسم الله. إنني لا أعني هؤلاء أبدا إنما أعني إنسانًا يحس بإشراف الله عليه ﴿**فلنقُصَّنَّ عليهم بعلم وما كنا غائبين**﴾[3]. فإذا هم بسوء توقف، وإذا زين له الشيطان قبيحًا كشف خداعه ورفض متابعته، واستحضر عظمة ربه، ونهيه، فاستقام..

هذا الذاكر العفيف النبيل هو الذى عنته الاية الكريمة ﴿.. **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى* فإن الجنة هي المأوى**﴾[4].

ما أكثر الألسنة المتحركة باسم الله. وأقل جدواها! وما أندر الأفئدة الخاشعة لذكر الله، وأحوج العالم إليها.. إن فساد الأديان يجيء من تحولها إلى ألفاظ ومظاهر، وما يؤدى الدين رسالته إلا يوم ينشئ ضمائر حية وسرائر طهورا، وقلوبا ترمق الشهود الإلهي برهبة، ذلك هو الذكر الحق..

---

(١) سورة الرعد: ٢٨ ـ ٢٩.
(٢) سورة المزمل: ٨ ـ ٩.
(٣) سورة الأعراف: ٧.
(٤) سورة النازعات: ٤٠ ـ ٤١.

ومن آثار هذا الذكر أنه يحكم غريزة حب المال، فالذاكرون لا يلهيهم التكاثر. ولا تزرى بهم طبائع الجشع والشح. هـم يأخذون المال من حله، ويضعونـه فى حقه، ولا يحبسونه، ووجوه الخير تنتظره. بل هم كما قيل:

لا يألف الدرهـم المضـروب صرتنـا لكن يمـر عليهـا وهو منطـلق

والغاشون من رجـال الأديان سقطوا فى حبائل المال وجمعه واكتنازه. فـأعانوا، أو سكتوا عن الحكـام الفسقة، ومهدوا الطـريق أمام الفلسفـات الملحدة كـى تحكم بعدمـا ساءت سمعة الدين، والمتحدثين باسمه!!

لكن النبى العربى المحمد وزع كل ما جاءه من أموال على الناس، وخرج من الدنيا بلا ميراث لأهل، وربى رجالا يؤثرون وجـه الله على متاع الدنيا كله: ﴿**ويطعمون الطعام على حبه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا* إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شُكورًا**﴾[1].

والطريف أن العشرة المبشرين بالجنة كانوا من هـذا الطراز الذى ملك الدنيا، ونزل عنها لله..

ليس النجاح أن يكـون المرء عديم المال والأهل، ولكـن النجاح أن يكون المرء كثير المال والأهل، ومع ذلك لا يشغله شىء من ذلك عـن ربه مصداق قوله سبحانه وتعالى: ﴿**يأيها الذيـن آمنوا لا تلهكـم أموالكـم ولا أولادكم عـن ذكر اللّـه ومن يفعـل ذلك فـأولئك هـم الخاسرون* وأنفقوا مما رزقنـاكم من قبل أن يأتـى أحدكم الموت فيقول رب لـولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين* ولن يؤخر الله نفسًا إذا جاء أجلها..**﴾[2].

ولذكر الله آثار كثيرة فى الأخلاق والمسالك ليس هنا موضع تتبعها وحسبنا أن نقول: إن ذكـر العظيـم يرفـع القـدر ويعقـد العـزم. والاستعـداد للقائه يمنـع الطغيـان. ويضبـط الحقائق..

من عرف الناس بـربهم، وذكرهم بحقوقه، وفند الشائعات البـاطلة فى ميدان العقائد، وبين أنه لا إله إلا الله؟ إنه محمد عليه الصلاة والسلام، لكن كيف نجح فى اقتياد الأجيال إلى الصراط المستقيم؟

---

(١) سورة الإنسان: ٨ ـ ٩.

(٢) سورة المنافقون: ٩ ـ ١١

إنه عندما بدأ الدعـوة فى مكة هاج عليه الأكثرون : ﴿**وقالوا يأيها الذى نـزل عليه الذكر إنك لمجنون**﴾[1]. بيد أنـه مضى إلى غايته يحارب الجنـون المتبجح وما زال بعين اللّـه حتى أقام دولة الحق .

كان القرآن خلقه ، كـانت دراسته لباب فكره ، وتيار شعوره ، كانـت وصاياه ، وأوامره ، ونواهيه جوهر مسلوكه ، وأساس عـلاقاته بالناس جميعـاً كانت تلاوته سعـادة روحه ، وقرة عينه ، ومرضاة ربه!

وفى الحديث : «ما أذن اللّه لشيء إذنه لنبى يقرأ القرآن يتغنى به» ، إن ما صدر عن اللّه وحيًا ، يطبق فى الأرض قانونا وخلقًا ، ثم يعود إليه نغما عذبا . .

ونذكر هنا قصة عن أثر القرآن فى نفـس رجل مشرك ، قال جبير بن مطعم : إن أباه قدم المدينة مفاوضا عـن قريش فى افتداء أسرى بدر والرجل من عظماء مكـة ، والمهمة التى جاء من أجلها تخليص سعيس من صناديد قريش أوقعهم البطر بأيدى المسلمين . .

وسمع الرجل المشرك نبى اللّه وهو يقرأ سـورة الطور فى صلاة المغرب ، قال : ما سمعت أحـدا أحسن صـوتا أو قـراءة منه . . واستمـر الرجـل يسمع الآيـات فى المحراب الخاشـع المخبت ، وهو مسحـور بالتلاوة المرسلة ، قال : فلما بلـغ هذه الآيات : ﴿**أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون* أم خلقوا السمـوات والأرض بل لا يوقنون**﴾[2]. إلخ قال مطعم : كاد قلبى أن يطير . . !!

وكان سماعه هذه الآيات ـ وهو مشرك ـ سببًا فى دخوله الإسلام بعد ذلك . .

ونتوقف هنا قليلا ، إن سورة الطور مكية ، ولا شك أنها قرئت فى مكة مئات المرات فهل لم يسمعها الـرجل إلا اليوم؟ ربما ، فـإن المشركين هناك تواصوا بـإحداث شغب وضـوضاء حول مجلس القرآن حتى لا تغزو معانيه قلبا ، فيؤمن باللّه .

وربما سمعها مـن قبل ولكـن التعصب والكبرياء صـداه عن الحق فلما قلمـت الهزيمة أظافر قريش ، وعاد إليها رشدها ، وتواضعها أخذت تفكر فيما تسمع !!

وقد نظـرت أن فى الآيات التى روعـت قلب الرجل ، وتجدد فى نفسـى إحساس بما أودع فيها من عبرة ، إن الآيـات قصيرة ، ولكنها ذات جرس لاذع رهيب!

---

(١) سورة الحجر : ٦ .

(٢) سورة الطور : ٣٥ـ٣٦ .

إنها تشبه المفتاح الدقيق لخزائن ضخمة. فالمعاني التي تهجم على الفؤاد بعد سماعها تشبه العواصف العاتية. تكررت كلمة «أم» خمس عشرة مرة. و«أم» عند علماء اللغة تجيء في هذا السياق للإضراب الذي يعقبه استفهام قد يكون توبيخا. أو تقريرا. أو تعجبا. .

إن النفس الإنسانية تتقلب على هذه المشاعر بما ينفي عنها الغفلة. ويرغمها على الانتباه.

﴿فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون﴾[1].

﴿أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون* قل تربصوا فإني معكم من المتربصين﴾[2].

﴿أم تأمرهم أحلامهم بهذا﴾[3]

﴿أم هم قوم طاغون﴾[4]

﴿أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون * فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾[5]

﴿أم خلقوا من غير شيء﴾[6].

﴿أم هم الخالقون﴾[7].

﴿أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون﴾[8].

﴿أم عندهم خزائن ربك﴾[9].

﴿أم هم المسيطرون﴾[10].

﴿أم لهم سُلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين﴾[11].

---

(1) محمد نبي الفطرة السليمة والعقل المتوازن.

(2) ريب المنون: قوارع الزمن، ومصيبة الموت. فلينتظروا. وستكشف الأيام لمن العاقبة.

(3) ليس هذا منطق عقل

(4) بل هو النزق والطغيان.

(5) يزعمون أن القرآن كلام بشر فليأتوا اذن بمثله. وليواجهوا التحدي.

(6) هل خلقوا من عدم؟ إن الصفر لا يوجد شيئ.

(7) هل أوجد الجنين نفسه في بطن أمه، وشق لنفسه السمع والبصر؟ مستحيل.

(8) هل نحن الذين خلقنا الأرض من تحتنا والسماء من فوقنا؟

(9) ان الله منح محمدا النبوة، فما دخلهم في هذا العطاء. هل خزائن الرحمة بايديهم.

(10) هل لهم قدرة يدبرون بها الأمور.

(11) إن كانت فليصعدوا إلى السماء بسلام و يستنزلوا منها وحيا.

﴿أم له البنات ولكم البنون﴾[1].

﴿أم تسألهم أجرًا فهم فى مغرم مثقلون﴾[2].

﴿أم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾[3].

﴿أم يريدون كيدًا فالذين كفروا هم المكيدون﴾[4].

﴿أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون﴾[5].

هذا أثر القرآن فى رجل مشرك التفت إليه بسمعه وفؤاده.

وروى الحافظ أبو بكر بن أبى الدنيا قال: خرج عمر بن الخطاب يعسى المدينة ذات ليلة، فمر بدار رجل من المسلمين، فوافقه قائمًا يصلى، فوقف يستمع قراءته، فقرأ الرجل: ﴿والطور * وكتاب مسطور..﴾ حتى بلغ: ﴿إن عذاب ربك لواقع* ما له من دافع﴾.

فقال: قسم ورب الكعبة حق! فنزل عن حماره، واستند إلى حائط - وهو مروع النفس - فمكث مليًا ثم رجع إلى منزله، فمكث شهرا يعوده الناس لا يدرون: ما مرضه؟ رضى الله عنه».

إن أمير المؤمنين عمر كان مفعم الصدر بخشية الله وهو يمشى فى أزقة المدينة يتفقد رعيته، وينصت المسامع ليتعرف ما هنالك، كان الرجل الكبير يحمل هموم الجماهير، ويسهر ليقدم حسابًا إلى الله عما ولى من شئون الأمة! وكانت تلك المشاعر المضغوطة كالوقود الذى يرتقب شعلة ليلتهب، فلما سمع: ﴿إن عذاب ربك لواقع..﴾. كان ذلك كافيا ليرجل قلبه، ويشحب وجهه، وتدمع عينه، ويئوب إلى بيته عليلا، وما به علة إلا مخافة الله.

وعمر إن شاء الله يبعث من الآمنين، فهو من السابقين الأولين والعشرة المبشرين، ولكن الضمير الحساس لا يعرف طمأنينة حتى يلقى الله بما أدى ووفى..!!

وإنما ذكرت هذه القصة لأنى مغيظ من رعاع يلتفون حول قارئ القرآن ناعم الأوتار،

---

(١) يزعم المشركون أن آلهتهم بنات الله مع أنهم يضيقون من نسبة البنات إليهم.

(٢) إنك متجرد فى دعوتك لا تبغى من ورائهم مالا ولا جاها فلماذا يضايقونهم.

(٣) القرآن من عند عالم الغيب فأنى لهم بلوغ مستواه؟

(٤) إذا كانوا يمكرون اليوم بك فغدا يهزمون.

(٥) ما عدا الله عبد له، وكل إله غيره كذب. والآيات من سورة الطور: ٢٩-٤٣.

فإذا هـم يصيحون حـوله بسفه. مـا يفقهون مـن معنى، ولا يستضيئـون بعظة، تحول بهم مجلس القرآن إلى مجلس لغو، ولهو، قبحهم الله . . !!

وكم أساء المسلمون إلى كتاب الله، وإلى ذكر الله!!

إن الآيات التى طار لها قلب امرئ واع ـ من سورة الطور ـ والتى ساقته ـ وهو مشرك ـ إلى الإيمان بالله، هذه الآيات بدأت بجملة واضحة: ﴿**فذكر فما أنت بنعمـة ربك بكاهن ولا مجنون**﴾. هذا التـذكير هو إنشاء برامـج لحياة جديدة، هـو بناء حياة من طـراز راشد على أنقاض حياة بالية . .

والذكر هنـا معاملة مع اللّـه، وهى معاملة فيهـا تبادل نشاط وتقديـر إن صح التعبير ـ ولله المثل الأعلى ـ وهـذا معنى يتضح من الحديث القدسى المشهور: «يقـول الله: أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه، إذا ذكرنى فى نفسه ذكـرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهـم، وإن تقرب إلى شبرًا تقربـت إليه ذراعًا، وإن تقـرب إلى ذراعا تقربـت إليه باعـا، وإن أتانـى يمشى أتيته هـرولة». وفى رواية عـن أحمد بعد ذلـك: « . . والله أسرع بالمغفرة».

إن هذا الذكـر هو إقبال رجل على اللّـه بعزم، وقبول الله لـذلك، وإقباله عليـه أجل، وأزكى . .

ولصاحب الرسالة كلمات مضيئة فى هذا الميدان نستهدى بها:

«من قال: لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة»: وما إخلاصها؟ قال: «أن تحجزه عما حرم الله عليه».

«كلمتـان خفيفتان على اللسـان ثقيلتان فى الميـزان، حبيبتان إلى الـرحمن، سبحان اللّـه وبحمده، سبحان الله العظيم».

«الطهور شطر الإيمان، والحمـد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمـد لله تملآن ما بين السماء والأرض، والصلاة نـور، والصدقـة برهـان، والصبر ضياء، والقـرآن حجة لـك أو عليك، كل الناس يغدو، فبائع نفسه، فمعتقها، أو موبقها».

وعن ابن أبى أوفى، قال أعرابى: يا رسول الله إنى عالجت القرآن فلم أستطعه ـ لم أقدر على حفظه ـ فعـلمنى شيئـا يجزى عن القرآن! قال له الرسول: «قـل: سبحان الله والحمد

لله ولا إله إلا الله والله أكبر» . وزاد فى رواية : «ولا حول ولا قوة إلا بالله» . قال الأعرابى : يا رسول الله هـذا لربى . فما لى؟؟ قال : «تقول : اللهم اغفر لى وارحمنى وعافنى وارزقنى ـ حسبه قال ـ واهدنى» .

ومضى الأعرابى . فقال رسول الله : «ذهب الاعرابى وقد ملا يديه خيرا . . » .

والأحاديث فى ذلك باب واسع ، والذى يكتب عن النبى العربى المحمد فى الأخلاق يظن سنته كلها خلقا ، أو فى الجهاد يظن سنته كلها جهادا ، أو فى الذكر يظن سنته كلها ذكرا . .

إن ضخامة هذا الرسول ترد المتطلع ، وهو حسير . فسبحان من بعثه رحمة للعالمين . .

«اللهم لك الحمد حمدا كثيرا خالدا مع خلودك . ولك الحمد حمدا لا منتهى له دون علمك . ولك الحمد حمدا لا منتهى له دون مشيئتك . ولك الحمد حمدا لا أجر لقائله إلا رضاك . . » . .

نبى المرحمة ونبى الملحمة ..

لا يستطيع ذو خلق أن يتهم محمدا بأنه كان يريد برسالته بسطة فى المال أو بسطة فى الجاه، أو حظ من حظوظ الدنيا . .

والمعروف فى سيرته أنه كان أعلى الناس هتافًا بتوحيد الله وتمجيده، وأغير الناس ضد نسبة الشركاء والشفعاء إليه، وأرغبهم فى تنفيذ أمره، وتوقير وحيه: وإبعاد الأهواء عما شرع للخلائق . .

وقد كان يحزن ـ إلى حد الاعتلال ـ لصدود الجهال عنه ويأسف لمضيهم فى عماهم، ولكن الله عرفه أنه مكلف بالبلاغ، وحسب: ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى* إلا تذكرة لمن يخشى﴾[1] .

وأفهمه أنه لا يقتاد الناس إلى الصراط المستقيم قسرا، وأن الحماس والإخلاص لا يحملانه على هذا المسلك: ﴿ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعًا أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾[2]؟

لكن أتباع الأديان الأخرى أحسوا بخطر من الدعوة الجديدة، ورأوا أن ترك صاحبها يتحدث معناه انصراف الناس عنهم، فإن الإسلام له بالنفس الإنسانية قرابة، أليس صدى الفطرة؟ إن العقل يتقبله على عجل، وإن القلب يرغب فيه دون تكلف، من أجل ذلك اتخذ أعداء الإسلام طرقًا عديدة للصد عنه . . !!

ولو كانت هذه الطرق مقارنة دليل بدليل، لرحب الإسلام بهذا النزال، واطمأن إلى نتائجه . . !!

---

(١) سورة طه: ٢ ـ ٣.

(٢) سورة يونس: ٩٩ .

لا . . إن الأمر مشى على سياسة الصلف والتحدى التى لا يحسن الأقوياء غيرها : ﴿**وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من آرضنا أو لتعودُن فى ملتنا**﴾(١) .

إن هذه السياسة فرضت على النبى الصبور المكافح أن ينتصب للدفاع عن رسالته ، وعن المستضعفين الذين اضطهدوا معه لاعتناقها .

إذا كنت تمشى فى الظلام ومعك مصباح يضىء لك الطريق ، فإنك قد ترفع مصباحك ليهتدى معك غيرك ، وإن كره أحد الانتفاع بسناك فليتعسف السير وحده ، وليتعرض للحفر والمهالك ما شاء له هواه ، ﴿**قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها**﴾(٢) .

لكن ما العمل إذا حاول سفيه يهوى الظلمة أن يكسر مصباحك؟ ويطفئ شعاعك؟ أليس من حقك أن تقاتله لتستبقى الهدى لك ولغيرك؟

إن ذلك ما فعله محمد ﴿**ومن أظلم ممن افترى على اللّه الكذب وهو يدعى إلى الإسلام واللّه لا يهدى القوم الظالمين* يريدون ليطفئوا نور اللّه بأفواههم واللّه متم نوره ولو كره الكافرون* هو الذى آرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون**﴾(٣) .

إن الذين يؤيدون سياسة تكسير المصابيح هم أشد الناس بغضًا لمحمد ، وكرها للرسالة التى جاء بها ، وهم يدركون أن الضوء عدوهم لأنه يكشف باطلهم ، ففى نور الحرية العقلية وحده يرفض الإنسان مبدأ التثليث فى الألوهية ولو قيل له تسويغًا لذلك : إن المثلث خط واحد . . ويرفض رب إسرائيل المتعصب لشعبه وحده ، المزدرى لسائر الشعوب ، الذى لم يتحدث عن الآخرة بكلمة . .

وقد شرع محمد يدعو إلى دينه ، فلننظر فى دعوته ، أترى فيها أثارة لمجد شخصى ، أو تطلعًا لغاية دنيوية ؟ ؟

هل رأينا فى تراث إنسان أحر من هذا الحديث عن اللّه ووحدانيته ووجوب التفانى فى مرضاته ؟ ؟

ثم لننظر فى القتال الذى خاض ميدانه ، هل رأيناه معتدا بقوته أم مستندًا إلى قوة اللّه

---

(١) سورة إبراهيم : ١٣ .

(٢) سورة الأنعام : ١٠٤ .

(٣) سورة الصف : ٧ ـ ٩ .

وحوله وطوله؟ هل رأيناه يبغى شيئا غير إعلاء كلمة اللّه؟ هل رأيناه يقول: الويل للمغلوب. أو يجعل الظروف تقول ذلك. أم ترك حرية التدين عامة شاملة بعد ما قلم أظافر الطغاة؟ لنستنطق التاريخ العادل . .

كانت معركة بدر أول قتال وقع بين الإسلام والوثنية، وذلك بعد خمس عشرة سنة من بدء الدعوة. ماذا كانت حال المسلمين خلال هذه المدة؟ كانوا مهدرى الحقوق. كانوا غرضا قريبا لكل ذى عدوان.

وكان الرسول يشكوا إلى اللّه ضعف قوته وقلة حيلته. . ورفض الجاهليون كل الرفض الاعتراف بالإسلام، وعده دينا يقبله المجتمع العربى . .

أُخرِجَ المسلمون من مكة ـ وهى الحرم الآمن ـ وكشرت الوثنية عن أنيابها. وبعد ما تم لها ما تريد أعلنت أن الهوان والطرد نصيب كل من يدخل فى الإسلام فهل يلوم أحد المسلمين إذا تصدوا لهذا التحدى. وقرروا الوقوف أمامه فى حدود قواهم القليلة؟

وماذا يفعلون؟ ارتقبوا فرجًا مع الغد المجهول. . وجاء هذا الفرج من حيث لا يحتسب أحد. . فقد فرضت الظروف على المسلمين معركة بدر دون أن يستعدوا أو يخططوا لها. وشعر فريق منهم بالكره البالغ لهذا القتال المفروض وتقدم المشركون للمعركة، وهم واثقون من دحر الإسلام، وحفر قبره هنا. . .

وأحس النبى عليه الصلاة والسلام أن التصدى لهؤلاء ما منه بد. وأن جهاد الماضى المر بالغ قمته اليوم. وأن حكم اللّه قد تتمخض عنه هذه الساحة التى مهدها القدر. فاتجه عليه الصلاة والسلام إلى ربه ينشد النجدة والحمى . .

قال ابن عباس: قال النبى عليه الصلاة والسلام. وهو فى قبته التى أقيمت له ببدر: «اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم. . » فأخذ أبوبكر رضى اللّه عنه بيده: فقال: حسبك يا رسول اللّه فقد ألححت على ربك. . فخرج النبى وهو يقول: ﴿**سيهزم الجمع ويولون الدبر* بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر**﴾[1].

وفى رواية: استقبل نبى اللّه القبلة ثم مد يده فجعل يهتف بربه عز وجل يقول: «اللهم أنجز لى ما وعدتنى. اللهم آت ما وعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض». فما زال يهتف بربه مادا يديه، حتى سقط رداؤه. .

---

(١) سورة القمر: ٤٥ـ٤٦.

كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يشعر أن قريشا أقبلت بكبريائها وبطرها تريد أن تتوج اضطهادها للإسلام بيوم أغبر. وكان يعلم أن جمهرة المسلمين صابرت البأساء والضراء أمدا طويلا وهى متشبثة بدينها فى وجه عناد شديد، فنظر إلى حالتهم قبيل القتال المرتقب وقال: «اللهم إنهم جياع فأشبعهم. . اللهم إنهم حفاة فاحملهم. . اللهم إنهم عراة فاكسهم».

لقد كلفهم الإيمان الكثير طوال السنين التى مضت. .

ولم يكن أحد يدرى أن اللّه تبارك اسمه قد تأذن بتغيير الوضع كله، فأغرى قريشا بدخول معركة هى أغنى الناس عنها، ووضع المسلمين أمام أمر واقع لا يستطيعون عنه حولا. لم؟ ﴿**ويريد اللّه أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين* ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون* إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم**. . .﴾[1].

نعم استجاب الرحمن لاستغاثة نبيه، وتنزل النصر المفاجئ فكان صاعقة كسرت ظهر الكفر، وجائزة ملأت أيدى المؤمنين بالخير، وصبغت وجوههم بالبشر. .

ولم يكن انتصار بدر هذا إلا فاتحة عهد آخر من الجهاد العسكرى تجمعت فيه كل القوى المعادية للإسلام تريد الإجهاز عليه والخلاص منه. .

واستأنف النبى وصحبه العمل لربهم وآخرتهم، إن أطماع الدنيا لم تكن أمل هؤلاء الرجال الكبار، إن الموت من أجل المبدأ الجليل هو ما غرسه النبى فيهم، وهو أسعد نهاية يختم بها مؤمن حياته. . !!

وقد تعلق المسلمون بهذا المعنى فى أيام الرخاء والعافية، فهم فى الأمن والصحة يسألون اللّه الشهادة كما جاء فى الحديث: «من سأل اللّه القتل من نفسه صادقا، ثم مات، أو قتل فله أجر شهيد». وفى رواية «من سأل اللّه الشهادة بصدق، بلغه اللّه تعالى منازل الشهداء، وإن مات على فراشه».

وبذلك التجرد للّه تكونت أمة وراء نبيها تنصر الحق، وتثأر له، ولا تبالى بأنصبتها من الدنيا، وكانت دنياها فى الأغلب رقيقة لما ارتبطت به من تكاليف، ولما حل بها من غربة. عن أنس بن مالك: خرج رسول اللّه إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون فى غداة باردة، صباح شتاء قارس. فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال: «اللهم إن العيش

---

(1) سورة الأنفال: ٧ ـ ٩.

عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة». وكانوا يحفرون التراب وينقلون أكوامه على ظهورهم، وينشدون:

نحن الذين بايعوا محمدا   على الجهاد ما بقينا أبدا

كان رسول الله حريصا على أن يكون القتال لله لا لدنيا عارضة. وكان يأبى على رجاله أن ينشبوا الحرب أو يستفزوا الخصوم، فعن عبدالله بن أبى أوفى أن رسول الله فى بعض أيامه التى لقى فيها العدو انتظر حتى مالت الشمس ثم قام فى الناس ـ خطيبا ـ قال: «أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية. فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف». ثم قال: «اللهم منزل الكتاب، ومجرى السحاب، وهازم الأحزاب اهزمهم، وانصرنا عليهم».

وفى رواية: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب اهزم الأحزاب، اهزمهم وزلزلهم».

وهزيمة الأحزاب حول المدينة شأنها عجيب، فإن قوات الضلال فى الجزيرة كلها أطبقت على المسلمين فى مدينتهم، فإذا المسلمون فى مأزق ضيق خانق ينذر باستئصالهم. وليس هناك بصيص أمل فى بشر، اللهم إلا ما تصنعه السماء.

وكان الظن أن المسلمين قد احتبسوا فى مصيدة هى لا محالة مهلكتهم وكان النبى الضارع لربه ينتظر منه العون لحظة بعد أخرى. فلا أمل إلا فيه..

وبوغتت الأحزاب الطامعة بالأجواء تتمخض عن عواصف أو أعاصير تخلع خيامهم، وتكب آنيتهم، وتبعثهم يطلبون النجاة من حيث جاءوا، بعيدًا عن هذه المدينة المنيعة..

وانطلق صوت الإيمان داخل المدينة التى أشرق عليها الفرج يقول: «الحمد لله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده»..

والثابت فى خلق الرسول الكريم أنه كان شديد التوكل على الله والتحصن به والثقة فيه، كان إذا قاتل قال: «اللهم أنت عضدى، ونصيرى، بك أحول، وبك أصول، وبك أقاتل»..

وكا إذا خاف قومًا قال: «اللهم إنا نجعلك فى نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم».

وكان يكره التهريج والفوضى والصخب عند القتال، فالأمر جد، والسكينة أعون على طاعة الله، واستنزال نصره.

والموقف هنا يوجب استحضار قدرة اللّه، وفضله وغناه، وحاجة العباد أبدا إليه، وتوسلهم إليه بالبراءة من الحول والطول، ولقد ثبت أن من مواطن إجابة الدعاء، وقت التقاء الجمعين، أنه كوقت السجود، وإنهاء الصوم، واستغفار السحر، وكل آناء التجرد لله، وطلب جداه.

والأمة الإسلامية كلها من وراء الجبهة الساخنة تدعو ربها وتسأله النصر، وهي في الصلوات الخمس تقنت، ترد النوازل، أو تقنت مع كل مطلع فجر طالبة من اللّه تأييد المجاهدين.

ونختار من المأثورات الواردة الدعاء الذى كان يقنت به عمر بن الخطاب وجيوش الإسلام تطوق أبواب المجوسية والنصرانية، الديانتين اللتين طالما أذلتا الجماهير، وطاردتا التوحيد.

««اللهم إياك نستعينك، ونستغفرك، ولا نكفرك، ونؤمن بك، ونخلع من يفجرك . .».

«اللهم إياك نعبد، ولك نصلى ونسجد، وإليك نسعى ونحفد[1] نرجو رحمتك ونخشى عذابك، إن عذابك الجد بالكفار ملحق».

«اللهم عذب الكفرة الذين يصدون عن سبيلك، ويكذبون رسلك ويقاتلون أولياءك».

«اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات، وأصلح ذات بينهم، وألف بين قلوبهم، واجعل في قلوبهم الإيمان والحكمة، وثبتهم على ملة رسولك صلى اللّه عليه وسلم، وأوزعهم أن يوفوا بعهدك، الذى عاهدتهم عليه، وانصرهم على عدوك، وعدوهم، إله الحق، واجعلنا منهم».

قال الأمام النووى: « . . واعلم أن المنقول عن عمر رضى اللّه عنه . . وعذب كفرة أهل الكتاب لأن قتالهم ـ يعنى المسلمين ـ كان مع كفرة أهل الكتاب. وأما اليوم فالاختيار أن يقول: وعذب الكفرة فإنه أعم».

ونحن نخالف الإمام النووى رضى اللّه عنه في اختياره الذى حور إليه دعاء عمر، وعنه نقلنا الصيغة المثبتة هنا ـ فإن كفرة أهل الكتاب هم في عصرنا، وعصر عمر مصدر البلاء الذى يعانى منه ديننا، وسر النكبات التى حاقت بأمتنا.

---

(١) نحفد: اى نسرع في الخدمة والعمل.

بل إن الشيوعية زحفت من بعدهم، سواء في النصف الأيمن للاتحاد السوفييتي، الذى استعمره القياصرة من قبل. أم في أرجاء العالم الإسلامى الذى أرغمه الاستعمار الصليبى على فتح أبوابه للشيوعية.

كما أرغمه على فتح أبوابه للصهيونية . . .

إن كفرة أهل الكتاب كانوا لا يزالون من أشد الناس حقدًا على الإسلام، ومواريثه، وقيمه كلها.

ونعود إلى الجهاد النبوى كى نزداد بصيرة فيه . . !!

كانت محنة المسلمين شديدة يوم طوقت الأحزاب المدينة، وكان الخناق يشتد عليهم حتى ليكاد يعتصر أرواحهم، ومع ذلك ثبت الرجال في موقف الحراسة. وأحبطوا المحاولات الكثيرة التى قام الكفار بها لاقتحام المدينة.

وفي يوم من الأيام رأى المهاجمون أن يقوموا بعمل حاسم لإيقاع الهزيمة بالمسلمين، وإحداث ثغرة في استحكاماتهم ينفذون منها إلى قلب يثرب.

وتلاحق الرجال يصدون هذا التسلل، وكان قد بدأ بعد الظهر. وظل الهجوم والدفاع مستمرين حتى ولى الأصيل وأقبل المغرب والمسلمون لا يستطيعون أن يصلوا العصر، كان الخطر شديدًا على المدينة، ولم يجد الرسول وصحبه بدا من مواجهة العدو حتى تنكسر حدته . .

ووقف الهجوم بعد المغرب لما يئس المشركون من إدراك شيء!

فصلى المسلمون العصر بعد وقتها، وكان النبى صلى اللّه عليه وسلم مغيظًا لما حدث فقال «ملأ اللّه قلوبهم وبيوتهم نارًا كما شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر». وعن ابن مسعود قال: «حبس المشركون رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن صلاة العصر حتى احمرت الشمس أو اصفرت، فقال: «شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر، ملأ اللّه أجوافهم وقلوبهم نارًا».

إن هذا التعليق على الهجوم الفاشل يستحق التأمل الطويل. إضاعة وقت العصر كان محنة حقيقية عند النبى عليه الصلاة والسلام. لقد فوت المشركون عليه أن يؤم أصحابه في جماعة خاشعة تناجى ربها، ترجو رحمته وتخشى عذابه.

لقد كانت سعادة هذا الإنسان الجليل أن يستغرق فى الصلاة، ويسلم وجهه ومشاعره فى عبودية كاملة للهّ رب العالمين.

قال علماء البلاغة: الإطناب فى موضعه حسن، ومثلوا لذلك بإجابة موسى لربه لما سأله: ﴿**وما تلك بيمينك يا موسى**﴾[1]؟ كان الجواب: عصاى.. ولكن موسى قال: ﴿**هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى**﴾[2]. إنه أطال الرد عمدًا ليطيل الوقت مع العظيم الأعلى. ولماذا يختصر فرصة عمره؟

وخاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام كان يرى الصلاة معراجه الذى يناجى فيه ربه، أو الساعة التى تصل الملأ الأعلى بأهل الأرض، ومن أجل ذلك كانت الصلاة لذته الروحية، ومن أجل ذلك كان غضبه لما شغله المشركون عن موعد لقاء مع من يحب...!

وعلاقة الرسول مع ربه جل شأنه تستحق التأمل العميق فى موقف آخر فقد تعرض المسلمون معه لانكسار شديد فى معركة أحد، وقتل من الرجال العظام سبعون هم من خيرة شهداء التاريخ. وأصيب النبى عليه الصلاة والسلام بجرح نافذ فى خده..

ومع فرح المشركين. وشماتة العدو، وآلام المؤمنين، فقد دعا النبى عليه الصلاة والسلام إلى صلاة جامعة ليحمد اللّه على ما وقع!!

روى الأمام أحمد قال: لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون ــ عائدين بعد ما كان ـ قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «استووا حتى أثنى على ربى عز وجل». فصاروا خلفه صفوفا. فقال صلى اللّه عليه وسلم: «اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت! ولا هادى لمن أضللت. ولا مضل لمن هديت..!! ولا معطى لما منعت. ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت».

«اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك، وفضلك، ورزقك..».

«اللهم إنى أسألك النعيم المقيم الذى لا يحول ولا يزول.. اللهم أسألك النعيم يوم العيلة، والأمن يوم الخوف».

«اللهم إنى عائذ بك من شر ما أعطيتنا، ومن شر ما منعتنا».

«اللهم حبب إلينا الإيمان، وزينه فى قلوبنا. وكره إلينا الكفر، والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين».

(١، ٢) سورة طه: ١٧ـ١٨.

"اللهم توفنا مسلمين. وأحينا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين".

"اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك. ويصدون عن سبيلك. واجعل عليهم رجزك وعذابك. . اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب. إله الحق".

هذه دعوات ينسكب اليقين من كل حرف فيها، إن الهزيمة قد تكسر أفئدة الذين يعبدون الله على حرف. فأما الذين عنوا فى الله وبعثوه نفوسهم وأموالهم. فإن عبوديتهم تتألق فى السراء والضراء. وهم يسلمون له ما أراد. ويخضعون لحكمته.

وذاك سر الكلمة الرقيقة الغالية التى قالها الرسول لصحبه بعد الهزيمة: "استووا حتى أثنى على ربى عز وجل . . ".

لما تألم المتنبى لشر ناله من سيده سيف الدولة قال:

فإن يكن الفعل الذى ساء واحدًا فأفعاله اللائى سررن ألوف!

إن الموقف هنا شيء آخر. فإن النبى الجليل عد ما وقع قدرا يعلم الله حكمته. ولا يجوز على وصفه بالسوء. إنه يستعيذ بالله من شر ما أعطى ومن شر ما منع على سواء. فربما كان العطاء مخوف العقبى. وربما كان المنع ألمًا فى الحاضر، وخيرا فى المستقبل . .

وحصن المؤمن أولا وآخرًا هو الله تبارك اسمه . . .

وقد ختم الرسول دعاءه باستنزال بأس الله على المشركين. ثم ضم إليهم الكفار أهل الكتاب. وذاك أن اليهود فى المدينة كانوا يتربصون الدوائر بالمسلمين!

إنهم سيفرحون كثيرًا لما حدث، حسبهم الله!

ولا شك أن ضربة أحد كانت موجعة بيد أنها نفضت المجتمع الإسلامى نفضا شديدًا، فامتاز المنافقون، وانعزلوا بغشهم وخداعهم. وتعلم المسلمون كيف يواجهون الأحداث بإيمان حر، وصف ملتئم . .

وشمت اليهود للنكبة النازلة. ولكن لم تمض سنون حتى نزلت لهم أضعافها، ثم تركوا قلب الجزيرة إلى حيث ألقت . .

قد يتحدث المؤرخون عن محمد المقاتل، وقد يصفون عبقريته العسكرية ولكنهم يخطئون

الخطأ الجسيم حين يعزلون هذا الجانب عن الجوانب الأخطر والأهم من سيرته الشريفة . .

لقد قاتل حين كـان سفك الدماء قصاصًا لضمان الحيـاة. أو حين يأمر بقتل مجرم. ولا يرون الطبيب مقاتلا حين يأمر ببتر عضو.

إن القتال الـذى خاضـه محمد وصحبـه كان فى سبيـل اللّه، ومـا كان فى سبيـل مأرب شخصى ، أو مجد ذاتى ، أو توسع إقليمى ، أو عرض آخر مما ألفه المؤرخون فى سيرة القادة ، والساسة على اختلاف العصور!!

قالت عائشة : ما ضرب رسول اللّه بيده خادمًا له قط، ولا ضرب امرأة. ولا ضرب بيده شيئا قط ، إلا أن يجاهـد فى سبيل اللّـه ، ولا خير بين شيئين إلا كان أحبهما إليـه أيسرهما ، حتى يكون إثمًا . فإذا كـان إثمًا كان أبعد الناس عن الإثم. ولا انتقم لنفسه مـن شىء يؤتى إليه. إلا أن تنتهك حرمات اللّه ، فيكون هو ينتقم للّه عز وجل !!

وقال : «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق» .

وجاء فى وصفه عليه الصلاة والسلام «ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا صَخّاب فى الأسواق ، لو يمـر إلى جنب سراج لم يطفئه من سكينتـه ، ولو يمشى على القصب لم يسمـع من تحت قدميه . . لا يقـول الخنا ، يفتح اللّه به أعينـا كمها ، وآذانا صما ، وقلوبـا غلفا . . أَسَدِّدُهُ ـ من كلام اللّه فى هذه الـرواية ـ لكل أمـر جميل ، وأهب له كل خلـق كريم ، أجعل السكينة لباسه ، والبر شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة منطقه ، والصدق والوفاء طبيعته. والعفو والمعروف خلقه. والحق شريعته ، والعدل سيرته ، والهدى إمامه والإسلام ملته . . . إلخ» .

ولنترك هذه المرويات إلى مبادئ أسـاسية فى الإسـلام. كانت ـ بداهـة ـ منطـلق نبيه فى جهاده فقد قال تعالى : ﴿**تلك الـدار الآخرة نجعلها للـذين لا يريـدون علوا فى الأرض ولا فسادًا والعاقبة للمتقين**﴾[1] .

أى أن طلاب الاستعلاء فى هـذه الحياة ، وناشرى الفساد فى أرجائهـا مطرودون من رحمة اللّه . .

والـواقع أن أغلـب القادة الفـاتحين ، والساسـة البارزيـن كانـوا من هـذا الطراز الـذى يضحك من كلمة التقوى ، ويهزأ من الدار الآخرة . .

---

(١) سوره القصص : ٨٣ .

وزبانية الاستعمار قديمًا وحديثًا من هذا الصنف المقطوع عن اللّه، الجاهل كل الجهل بسبيل اللّه . .

أما نبى الإسلام فهو لا يعرف إلا هذه السبيل ولا يقاتل إلا فيها . .

الإسلام قاطع فى أن الذين يكدحون للدنيا وحدها، ويجحدون ما وراءها لا تفتح لهم أبواب السماء. ولا ينتظرهم فيها خير: ﴿**من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون* أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون**﴾[1].

إن تلك التعاليم الرفيعة تكشف عن حقيقة القتال الذى خاضه محمد وصحبه! ! إنه للّه أولا وآخرًا، تحمله صاحب الرسالة الخاتمة كى يحمى الحق، ويرد عنه كيد الكائدين! تحمله كى تبقى للركع السجود حرية العبادة، تحمله كى يقال: اللّه أكبر. فلا يجىء جبار وغد ليسد فم العابد الموحد . .

أما من قاتل ليهتف باسمه، أو ليغنم مالا، قل أو كثر، فليس له فى الإسلام نصيب. ولا «بسبيل اللّه» صلة!

إن نبى الملحمة هو نبى المرحمة، هو نبى الصلاة والزكاة. والبر والتقوى شخصية متكاملة، التقت فيها أمجاد الإنسانية الرفيعة كلها . .

وإذا كنا نقدم تفسيرًا للقتال الذى أداره الإسلام فمن حقنا أن نطلب من القوى المعادية للإسلام تفسيرًا لما صنعت ولا تزال تصنع بالإسلام وأمته . .

إن الإسلام اصطدم أول تاريخه بالوثنية واليهودية والنصرانية. فهل تغيرت مواقف المشركين. وأهل الكتاب منه بعد مرور أربعة عشر قرنًا؟ أم لا يزالون يضنون عليه بحق الحياة؟

فى الهند ـ حيث تسود الوثنية ـ نقرأ بين الحين والحين أنباء عن المذابح الطائفية هناك. وهذا هو العنوان المختار لقتل ألوف المسلمين بالجملة . .

وذكر المسلمون هناك أن القتل يستمر عندما يكون المسلمون فى بلد ما أقل من خمس السكان! أما عندما يكون المسلمون حول النصف فإن المذابح تقل لأن المقاومة ترهب، وخسائر المهاجمين تزيد! !

---

(١) سورة هود: ١٥ـ١٦.

وقد ذبح من المسلمين نحو المليون عندما أنشئت «باكستان» ولا يزال القتل الجماعى مصير المسلمين فى مئات القرى .

هل راجع الضمير الوثنى نفسه فى هذه المآسى؟ هل سيراجع نفسه يوما؟

وقرأنا من شهور مقتل عشرة آلاف مسلم فى «تشاد»! وهذا الخبر المشئوم نموذج لأخبار كثيرة عن مذابح المسلمين فى أفريقية الوسطى ، منذ بدأ النشاط التبشيرى يرسخ أقدامه هناك .

والصليبية حديثة هى المسئولة عن هذه المجازر الكالحة .

ولقد صرخت فى قطر إسلامى عزيز ، وأنا أقرأ هذه الأخبار طالبا من المسلمين أن يجعلوا للشهداء يوما من أيام السنة نبكى فيها الدم المهدر والتوحيد المستباح ، إن دمنا أرخص دم فى دنيا الناس ، ولو أن الكلاب قتلت بهذه الأعداد الكبيرة لغضب لها جماعات الرفق بالحيوان . . !!

وفى أواسط هذا القرن الرابع عشر تحركت اليهودية ، وتذكرت بغتة أن لها صلة بفلسطين ، وبدأ الهجوم الصهيونى على مراحل .

وفرض على العرب أن يستسلموا ، فإذا وجدت رصاصة فى البيت نسفت جدرانه . وسوى بالرغام . .

كم يبلغ قتلانا فى فلسطين منذ بدأ غزوها؟ ألوف وألوف . .

ومطلوب من المسلمين الآن أن ينسوا ويستكينوا!! إن الذين قاتلوا الإسلام من قديم لا تزال قلوبهم معلقة بالضغائن ، ولا يزالون يبيتون الشر لمحمد ، وتراثه . .

والغريب بعد ذلك كله أن يتهموا الإسلام بالعدوان ، وهم الذين اسودت قلوبهم ، وصحائفهم بالمنكر من الأقوال والأفعال . . !!

هل يترك هذا الطغيان يحق الباطل ويبطل الحق؟ هل يترك ليذل العزيز ويعز الذليل؟

لقد أمر المسلمون أن يعتمدوا على الله ، ويقاوموا هذا العنف ، وقيل لهم : لا تقبلوا الضيم ، ولا ترخصوا الحق : ﴿**فلا تهنوا وتدعوا إلى السَّلْم وأنتم الأعلون والله معكم**﴾[1] .

إن السلام هنا يعنى الضياع المادى والضياع الأدبى ، ولا يتقبلها إلا جبان خاسر الدين والدنيا . .

---

(١) سورة محمد : ٣٥.

وهذا سر عشرات ومئات الأحاديث والآيات التى أوصت بالجهاد. وهو جهاد ـ كما علمت ـ فى سبيل الله لا إشباعا لغرور. ولا تمشيا مع طمع، ولا جريا وراء جاه، ولا عصبية لجنس، ولا دعما لباطل فى هذه الحياة، إنه منع للشرك أن يقهر التوحيد، ومنع للظلم أن يجتاح الحقوق ومنع للقوة أن تمحو العدل. . !!

فى جو من التوقير والتهيب نرمق رجالا صنعهم محمد المحب لربه، الراضى عنه، الفانى فيه، نفخ فيهم من روحه فإذا هم ليوث بالنهار، رهبان بالليل، يؤثرون الله على أنفسهم، وينشدون قبوله بالنفس والنفيس.

هم مجاهدون أتقياء، أشداء على الكفار رحماء بينهم، من قتل منهم مات شهيدا فى سبيل الله، ومن عاش منهم بقى حارسا يقظا لكلمات الله. .

كان الواحد منهم ينزع نفسه من أحضان عروسه ليلقى ـ فى سبيل الله ـ حتفه، وهو سعيد. . !!

كان الواحد منهم يذهل عن الأهل والعشيرة ـ فى مجتمع قوامه العصبية للأهل والعشيرة ـ ويتغرب بعقيدته، مستبدلا أهلا بأهل، وعشيرة بعشيرة. .

وعندما أنظر إلى دنيا الناس الآن أرى العجب، لقد رأيت كثيرين باعوا دينهم بعرض من الدنيا، وقالوا كلمات الكفر حرصا على منصب أو تطلعا إلى آخر. أو تركوا الحق يموت مستوحشا لأن إيناسه يغضب بعض الكبراء. .

أين هؤلاء الصغار من الرجال الذين رباهم محمد فاستقر بهم التوحيد وكان مطاردا، وعرفت الآخرة فى سيرتهم، وكانت مجهولة؟؟

فى المجتمع العلمى الآن يقال: إن خطتنا بناء دار لكل شاب، وتمليك سيارة لكل أسرة، وتمكين أفراد العائلة من كذا وكذا من وسائل الرفاهية، ثم ماذا؟ لا شىء. .

الحديث عن الله، والآخرة شىء مضحك. .

أما محمد الوافد الغريب على أنصاره بالمدينة فيتوجه أول ما يتوجه إلى بناء المسجد منشدًا مع البناة المتطوعين من صحبه.

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة. فانصر الأنصار والمهاجرة. . !!

لقد بدأ يبنى جيش الحق بكلمات من نور، أو من نار، يقول: «الغدوة فى سبيل الله، أو

روحه خير من الدنيا وما فيها» وفى رواية «عدوة فى سبيل الله أو روحة خير مما طلعت عليه الشمس» .

«ثلاثة لا ترى أعينهـم النار: عين حرست فى سبيل اللّه، وعين بكـت من خشية اللّه، وعين كفت عن محارم اللّه» .

«رباط يوم فى سبيل اللّه خير من الدنيا وما فيها» . «رباط شهر خير من صيام دهر» .

«من جهز غازيًا فى سبيل اللّه فقد غزا، ومن خلف غازيًا فى أهله بخير فقد غزا» .

«ما خالط قلب امرئ رهج - فزع وقلق - فى سبيل اللّه إلا حرم اللّه عليه النار» .

«من بلغ العدو بسهم رفع اللّه له درجة، ما بين الدرجتين مائة عام» .

«مقام الرجل فى الصف فى سبيل اللّه أفضل عند اللّه من عبادة الرجل ستين سنة» .

«إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف» .

وعن أبى هريـرة قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلـم: «يضمن اللّه لمن خرج فى سبيله - لا يخرجه إلا جهاد فى سبيلى، وإيمان بى، وتصديـق برسلى - فهو ضامن أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى منزله الذى خرج منه نائلا ما نال من أجر، أو غنيمة .

والذى نفـس محمد بيـده لولا أن أشـق على المسلمين ما قعـدت خلاف سريـة تغزو فى سبيل اللّه أبدا، ولكن لا أجد سعة فـأحملهم، ولا يجدون سعة، ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى . .

والذى نفس محمد بيده لوددت أن أغزو فى سبيل اللّه فأقتل . ثم أغزو فأقتل! ثم أغزو، فأقتل» .

هذه الكلمات إلى جـ نب آيات الكتاب العزيز، إلى الجانب التطبيقى العملى لرسول ظل نحو ربع قرن - هو أمد الرسالة — دءوبًا منتظمًا فى نصرة ربه كأنه كوكب دوار، لا توقف ولا شرود . . ذلك كذ صنع الجيل الذى ثبت أركان الحق، وأرسى قواعده إلى آخر الدهر . .

الويل للعالم إذا نامت الشرطة، واستيقظ اللصـوص، وقد أسهر محمد ليله وجند رجاله ليحرسوا مسيرة الحق، ويطاردوا العصابات التى ألفت الغارة عليه حينًا بعد حين . .

إن الرجل الذى تورمـت قدماه من طول تهجده هو الذى انطلـق فى ميادين الكفاح المر يضرب ناشرى الخرافات، ويمهد الأرض لغارسى الحقائق . .

ونؤكد مرة أخرى أنه ما اعتمد الإكراه وسيلة لغرس عقيدة، بل إن أنبياء اللّه كلهم يأبون هذه الوسيلة فى غرس الإيمان . .

الذى حكاه التاريخ، ولا يزال يحكيه، أن الضلال المسلح هو الذى يقوم بأعمال الفتنة والنهب، وأن موقفه من الإسلام لا ينطوى على مهادنة أو شرف . .

وهنا يجب أن نقدر محمدًا قدره. إن توحيد اللّه سبحانه وتعالى هو الشىء الذى أطبق المرسلون عليه كلهم، ما يعرفون غير ذلك، ما يعرف آدم، ولا نوح، ولا إبراهيم، ولا موسى أن للّه ولدا، هو إله معه، وذلك غير إله ثالث اسمه روح القدس !!

إن هذا التثليث غريب على السماء، منكور الأصل والوجهة، ومن حق محمد ـ والأنبياء كلهم وراءه ـ أن يصرخوا بالحقيقة الواحدة، وأن يمنعوا كل عقبة تعترضها . .

إن الأرض والسماء وما بينهما تهتف مع محمد وهو يشق أجواز الفضاء بكلمات الأذان . . فإذا استحمق بشر، وظن الآلهة عشرًا فليستحمق ما شاء، ولكن ليس له أن يستغل سلطته، أو ثروته فى إيذاء الموحدين، وإغلاق أفواههم . .

ويوم ينكسر سيفه، وهو يحاول قطع الطريق على قافلة الحق، فليذهب إلى الجحيم، ولا مكان للعطف عليه، أو إهانة الذين نجوا منه.

وفى عصرنا هذا تقع مفارقات مستغربة، هناك من يريد إقناع المسلمين بترك رسالتهم! والتنكر للحق الذى شرفهم اللّه به! والتخلف عن محمد، خير من جاهد لتكون كلمة اللّه هى العليا!

وما أشك فى أن هذا الصوت القبيح مستأجر للشيوعية أو الصهيونية أو الصليبية، ومصيره إن شاء اللّه إلى الاضمحلال والتلاشى، فإن الأوفياء للّه ورسوله سيبقون على العهد إلى قيام الساعة يؤمنون باللّه، ويكفرون بالجبت والطاغوت . .

وقد شاء اللّه أن تقترن الشهادة له بالوحدانية، مع الشهادة لمحمد بالرسالة وذلك لأمر واضح، أن محمدا عليه الصلاة والسلام كان أشد جؤارا بذكر اللّه وحده، ومحو كل أثارة من شرك تتسلل إلى دينه.

لقد تعلمنا منه أن نعرف اللّه معرفة اليقين ، وأن نحبه الحب المكين وأن نتابعه وهو يردد : ﴿**قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي للّه رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين**﴾[1] .

فماذا يقول الآخرون؟ إنهم يهرفون بما لا يعرفون! والموعد ساحة العرض . ﴿**إنك ميت وإنهم ميتون * ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون**﴾[2] .

---

(١) سورة الأنعام : ١٦٢ ـ ١٦٣.

(٢) سورة الزمر : ٣٠ ـ ٣١ .

ختـــام

هناك أئمة كبار لهم فى دراسة السيرة الشريفة بصر أطول، وخبرة أعمق، وقد يستطيعون خيرًا منى أن يتحدثوا فى: «فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء».

بعضهم قرأنا له من علمائنا الأقـدمين، وبعضهم سيتمخض عنه المستقبل لأن التعرف على صـاحب الـرسالـة العظمـى، واكتشاف جـوانـب العظمة فيـه لم يتها بعد، على كثـرة الكاتبين والدارسين . .

فى شبابى كتبت «فقه السيرة» وحسبت أنى أتيت بشىء طائل فى الإبانة عن عظمة محمد صلى اللّه عليه وسلم . .

ثم عرفت ـ بعد ـ أن محاولتى كانت محدودة، و إن كانت ـ بستر اللّه ـ غير مردودة . .

ثم كلفتنى «إدارة الشئون الدينية» بدولة قطر أن أسطر هذه الصحائف فاستجبت .

وكانت عـدتى التى اعتمدت عليها عـاطفة حب تتحرك فى قلبى نحـو محمد صلى اللّه عليه وسلم، تجعلنى حفيا بمناجاته للّه، مشوقًا إلى متابعته، والإفادة منه .

لكن العاطفة الحارة لا تستر البصر الكليل، والهمة القاصرة .

لذلك انتهيت من الكتابة، وقد استـولى على الشعور بالنقص، ثم قلت : جهد المقل، ولعل غيرى يتم ما بدأت . .

إن الكتابة فى شمائل محمـد ـ صلى اللّه عليه وسلم ـ وعـبادته، وفروسيته ميدان لا يزال ينتظر الرجال . . وأستغفر اللّه أولا، وآخرًا .

المحتويات



عند خاتم الأنبياء

شغفت بسير العباد الصالحين، وحاولت أن أقبس منها شعاعًا أستضيء به.

كنت بقلبي مع موسى في مدين، وهو يحس لذع الوحشة والحاجة. وكنت مع عيسى وهو يواجه مساءلة دقيقة ويدفع عن نفسه دعوى الألوهية. وكنت مع إبراهيم وهو بوادي مكة المجدب يسلم ابنه للقدر المرهوب، ويسأل الله الأنيس لأهله.

غير أني انبهرت وتاهت مني نفسي، وأنا بين يدي النبي الخاتم محمد بن عبد الله، وهو يدعو ويدعو.

لقد شعرت بأني أمام فن في الدعاء ذاهب في الطول والعرض لم يؤثر مثله عن المصطفين الأخيار، على امتداد الأدهار..

ولست في مقام مفاضلة بين أحد من النبيين، إنها حقيقة علمية رأيت إثباتها في صفحات قلائل، مشفوعة بالدلائل التي تزدحم حولها..

وفي هذا الكتاب سياحة محدودة في جانب شريف من جوانب السيرة، جانب الذكر والدعاء.

ما فيه من توفيق هو محض الفضل الأعلى، وما قد أخطئ فيه هو رشح نفسي الأمارة بالسوء..

